حب لم يعرفه البشر

بقلم ٠ نادية كيلانى

الغلاف والرسوم الداخلية بريشة
الفنان جلال عمران

الاهداء

الى مشروع يرمى بطوق النجاة لانسان تتجاذبه امواج الحياة المتلاطمة ويوقفه امام مرآة نفسه يسأله عما يريد ويعطيه الفرصة لكى يحقق امنيته .. ويصير الانسان بعدها مدينا بهذه الفرصة فلا يملك سوى اهداء العمل الذى انجزه خلالها إليه ..

الى مشروع التفرغ التابع لوزارة الثقافة ..

نادية كيلانى

المقدمة

عندما يكتب الكاتب رواية فإنه يتخذ من الواقع مددا لفكرته وليس من الضرورى ان يكون الواقع اصلا فوتوغرافيا لهذه الفكرة .. لان .. الفكرة تكون ناتج بلورة رأى واتحاد موقف من صور الواقع المتدفقة على العقل فى شكل تجارب لحظية ويومية تتوارد متتابعة فى شريط طويل طول السنين التى عاشها الانسان وذاق خلالها الآلم واللذة ، الحزن والفرح ، اليأس والرجاء.

فإذا اراد الانسان ان يعيد رواية هذا الواقع فإنه يفرغ كل مخزونه ويقدم خلاصتها فى صفحات محدودة العدد لكنه بالضرورة يستكمل فيها فكرته ولحظة ان يتحرر القلم من قبضة اصابعه .. وقتها فقط يكتشف انه لم يقل كل ما يريد وان فكرته لابد لها ان تستكمل فى عمل روائى آخر ..

مع طلوع الفجر تبزغ عشرات الانوار من نوافذ البيوت المتراصة كقطع الصابون يضيئها المبكرون من أصحابها الكادحين .. ومع أول تكبيرة من تكبيرات آذان الفجر تمتزج أصوات المياة المتدفقة من الصنابير مع همسات وتسبيحات ووقع اقدام مرتفع رغم حرص اصحابها على خفضها .

ثم تفتح الأبواب وتغلق وكلهم فى الطريق الى هدف واحد مسجد الطيب .[وحارة الطيب] تتفرع من أحد شوارع حى السيدة زينب المتسع لمختلف الطبقات ، ففيه العمارات الشاهقة التى يسكنها الموسرون فهم يملكون الحوانيت والمصانع التى تدر عليهم ربحا كبيرا .. وفيه المصالح الحكومية والاماكن الاثرية التى تغمرهم بنفحاتها فتبعث فى نفوسهم الثقة بكرم الاصل وطيب العنصر .

وفى الوقت ذاته يضم الحي بيوتا تغط فى الضيق والقذارة والتهدم ، وهى معمورة بكتل من اللحم البشرى المهمل.

وقد تتصورهم من الوهلة الاولى كسالى متواكلين لا يبالون حياة أو موتا ، ولكن الحقيقة انهم لا يرون فيها خطرا بقدر ماهم يتفاءلون بعتباتها وعنكبوتها ، وهم ينامون مطمئنين فى رعاية الرحمن والست الطاهرة ، وهم أناس دأبوا على الانشغال بالسعى وراء رزقهم ورزق عيالهم الكثيرة الفاغرة أفواهها .

وبين أولئك وهؤلاء توجد الاماكن الوسط ، والبيوت الوسط والناس الوسط .. بيوتها عادية تجمع بين القدم والمتانة وعدم

المبالغة فى ارتفاعها ، وشعار أصحابها "الستر" بحروفها ومعناها فهم يعيشون لا يمسكون ولا يبذرون ، وهم يملكون قوت يومهم ، واحيانا يومهم وغدهم . اذا كانوا يعملون لحساب انفسهم . وقوت شهرهم ، اذا كانوا يشاركون الحكومة فى أعمالها الكثيرة ..

واهم ميزة لسكان تلك المناطق ، الانتماء الشديد الى اسرهم ، والتعاون الكامل مع جيرانهم بحكم اصولهم الضاربة فى تاريخ الحى ، فهم يتوارثون المكان والعادات ..

وبين هؤلاء القوم يعيش "الحاج عبدالستار الطيب" سيد الحى الذى لا يألو جهدا فى تقديم العون والنصح والوقوف بجوار جيرانه "وأهل حتته" فى أفراحهم واتراحهم والذى أعطى له هذه الصلاحية أصله العريق ، فقد نشأ فى بحبوحة من العيش ، وشاهد منذ أن وعت عيناه الناس يفدون الى بيته يطلبون الاحسان فلا يردون .. وجده أول من سكن الحارة فسميت بأسمه "حارة الطيب".

وأول من بنى بيتا مكونا من ثلاثة طوابق على ناصية الحارة ، وهو البيت الذى يقطن "الحاج عبدالستار" واسرته أحدى شقتى الدور الثالث ، وللبيت فناء واسع كان يشهد الولائم التى يفد اليها عابرو السبيل فى كل مناسبة .

وكان عبدالستار وهو طفل يتولى سقاية هؤلاء الوافدين ، فيلف ممسكا بالابريق ويطوف على القوم فتملأه السعادة وهو يسقيهم ، فهو يؤمن بالحديث الذى يردده أبوه دائما أمامه :"خادم القوم سيدهم" ولانه كان يجد فى هذا العمل متعة فقد نشأ شغوفا به .

يستيقظ الحاج مع آذان الفجر وينادى زوجته فتنهض مسرعة عند أول نداء باسمها ، فتهرول وهى تستغفر الله وتستعيذ به من الشيطان الرجيم . وهى تعرف مهمتها تماما فى هذا الوقت وفى كل وقت والابتسامة لا تفارق شفتيها ، ودعاء بالبركة لا يفارق لسانها

وقبل ان ينزل "زوجها" لصلاة الفجر تساعده على ارتداء ملابسه ووضع عباءته على كتفيه وطى منديل لجيبه وعادة تبدأ بقولها:

- صل فى البيت اليوم ياحاج .. الدنيا برد وأنت صدرك "بيزيق"

فيرد قائلا:

- الصلاة بالمسجد لها طعم آخر ، ورائحة زكية ، وهناك أشعر فعلا أننى فى روضة من رياض الجنة .. ثم يتنهد ويضيف:

- ربنا يرزقنا خيرها ياحاجه .

فترد رافعة يديها الى السماء:

- آمين .. انتظر حتى أذهب معك لأصلى فى المسجد..

- صلاة المرأة فى بيتها خير من صلاتها فى المسجد .

وعبدالستار ليس رجلا "متزمتا" لا يسمح لزوجته بالخروج حتى للصلاة بالمسجد ، ولكنه رجل وسط كالحى الذى يعيش فيه .. فعلى الرغم من قوله لزوجته : صلاة المرأة فى بيتها فهو يدرك تماما أن صلاة المرأة فى المسجد ليست ممنوعة أو محرمة ، ولو أن زوجته ألحت عليه - وكثيرا ما تفعل - لانتظر وهو يدعو لها بالبركة ، وأن تركته يذهب . يذهب وهو يدعو لها بالبركة .

ومن عادات الحاج عبدالستار أن يمر على كل شقة وهو فى طريقه الى المسجد ، فيدق الابواب وينادى على أصحابها فاذا داعبه أحدهم من خلف بابه قائلا :

- النوم سلطان ياحاج .

يرد:

- الصلاة خير من السلطان يارجل .

أمام باب الشقة الأخيرة يجد "الحاج مصطفى الكيال" صديق عمره واقفا فى انتظاره ، متأهبا لمرافقته الى المسجد.

ومن عاداته عقب كل صلاة أن يجلس فى صحن المسجد ومن

حوله أهل حارته وجيرانه ، يستشيرونه فى أمورهم ويطلبون منه النصح والتوجيه ، ومعاوناته أيضا .. لكنه اليوم لا يلتفت اليهم ولا يرد على أسئلتهم ولا يجلس بينهم حتى يدور بعينيه ورأسه ، بل وجسده كله بحثا فى أرجاء المسجد : انتبه الرجال فاستداروا يبحثون معه بعيونهم حتى ابتسم أحدهم وقال:

- اطمئن ياحاج أنه قادم نحونا ..

عندئذ يشق الصفوف شاب قمحى اللون ، فاحم الشعر قصيره ، معتدل الطول ، مفتول العضل طيب الطلعة دقيق الملامح ، يشبه الى حد كبير "الحاج عبدالستار" لولا أن الأخير نبتت و تبعثرت فوق رأسه الزهرات البيض فزادته وقارا وسطر الزمن خبراته على جبينه فبدت على غضونه حكمة وقورة .. وبصماته أسفل عينيه فى تناسق وأعتدال فأكتسبا عمقا ونضجا .. وما أن يصل الشاب الى "الحاج عبدالستار" حتى يصافحه ويقبل يده ويقول :

- أطمئن يا والدى .. "من شابه أباه فما ظلم" ثم يلتفت الى الجمع الملتف حول والده وفى عيونهم تساؤل ، وفوق شفاههم طيف ابتسامة حيرى ، ويواصل كلامه:

- الذنب كله على السن ياجماعة .. ما أن بلغت الواحد والعشرين منذ أيام قليلة حتى ترك لى والدى الحبل على الغارب كما نصح بذلك الأسلام .. ولكننى أسير وفق تعاليمه التى بثها فىّ منذ طفولتى .. فقد دللنى سبعا ، وأدبنى سبعا وصاحبنى سبعا وعندها ينفجر الرجال فى ضحك مهذب وقور مراعاة للمكان الذى هم فيه ويقول أحدهم :

- نعم التربية والله .

ويقول آخر:

- ومن غير "الحاج عبدالستار" يربى ويحسن التربية .

ويضيف ثالث:

- كلنا نتبع نصح الحاج ووصاياه .

وتلمع عينا الرابع ويقول:

- أليس غريبا ياحاج وأنت توقظ جيرانك وتدعوهم للصلاة ولا توقظ أبنك وهو معك فى الشقة نفسها ؟

فينبرى "الحاج مصطفى الكيال" مسرعا بالرد عليه :

- لأن الحاج عبدالستار يريد لأبنه أن يكون ممن يوقظون الناس لاممن يوقظهم الناس .

يضحك الرجال ثانية ويربت أحدهم على ظهر الشاب قائلا :

- أنت "محمد الطيب" وأسم حارتنا يشهد بمعدنكم الأصيل وجوهركم النادر[يستغفر الرجل الله العظيم ، ويطلب من الجميع القعود ويقعد بينهم فى تواضع ، ويتحول الى آذان صاغية لكل من يكلمه ، ولسان صدق فى بذل النصح ..]

أما اذا احتاج الأمر الى أكثر من هذا كالأقتراض مثلا فلا تتأخر يده فى مشوارها الى جيبه .. وهو يصبر على المدين حتى يأتى طائعا أو لا يأتى..

وكثيرا ما يتجشم " الطيب " عناء الانتقال الى حيث يتطلب الامر وجوده بنفسه .

وهناك نوع من المشكلات لا يهمس بها صاحبها الا فى أذن الرجل مباشرة ، وعندها يتحول الى "كمبيوتر" يحفظ الأسرار ولا يخرجها إلا مشفوعة بحلها المناسب .

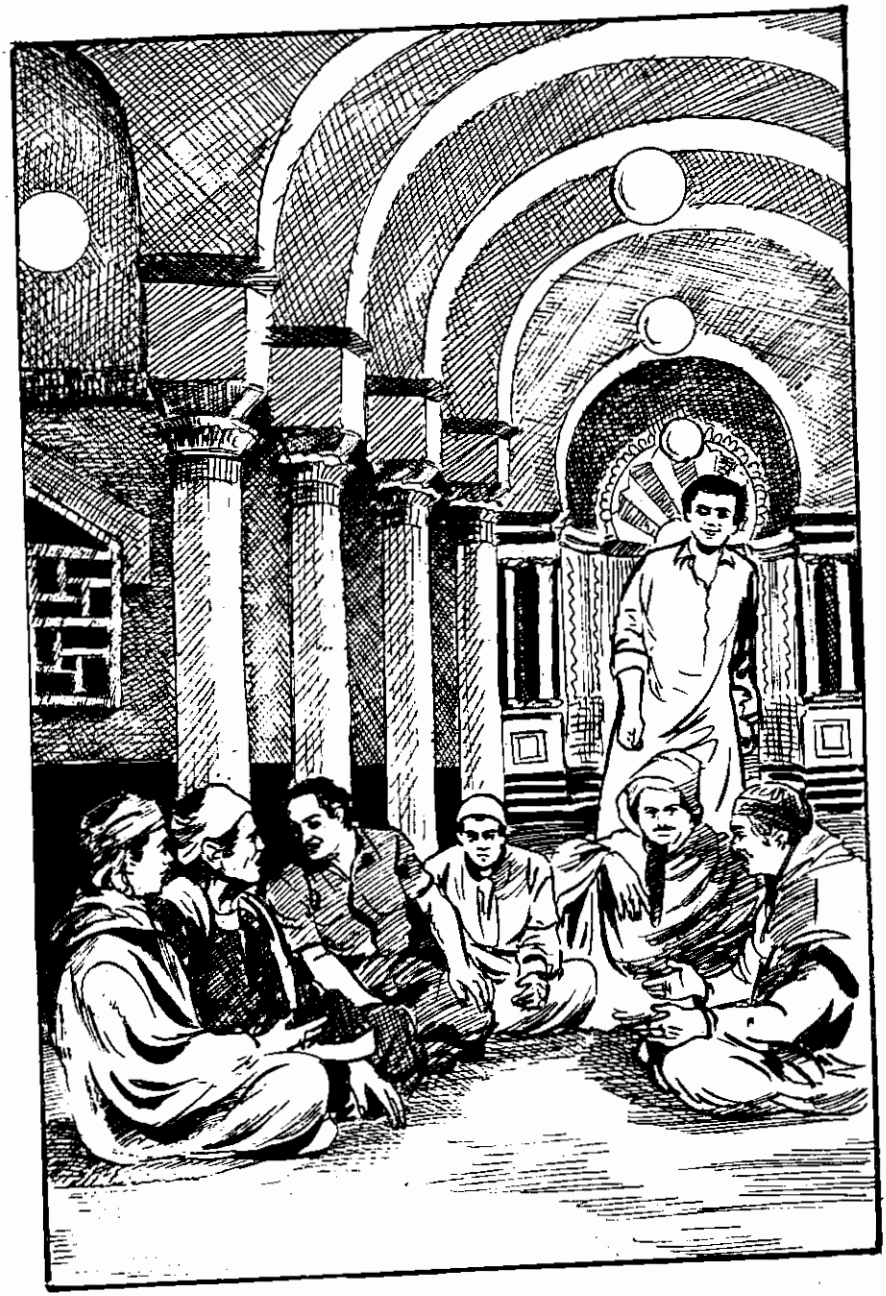

- ٢ -

حول مائدة الأفطار جلس "الحاج عبدالستار" فى انتظار باقى أسرته .. أقبلت هدى وقد أرتدت ملابسها ، ومشطت شعرها وتركته منسابا خلف ظهرها .. أتجهت الى والدها بعد أن تركت حقيبتها وبعض الكتب الجامعية فوق "البوفيه" بجوار باب الشقة تتقدم محدثة جلبة شديدة ، فهى تحيى والدها وتداعبه قبل أن تصل اليه :

- صباح الخير يابابا ياحبيبى .

وحين تقترب منه تصافحه وتقبل يده وتجلس بجواره وهى تتلفت حولها سائلة دون انتظار لإجابة :

- أين ماما .. ؟ لماذا لا تأكلون .. ؟ تفضلوا.. تفضلوا.. هل آتى محمد بالصحيفة ؟..

تدخل الأم حاملة أطباق الطعام وتخاطب ابنتها:

- ألا تكفين عن الجلبة ياهدى ..

- صباح الخير ياست الكل .. متى ستنزل يابابا؟

ينظر الحاج الى ابنته فى حب شديد ، ويشير اليها أن تهدأ دون جدوى .. فلا يجد بدا من الدخول معها فى جدل شبه يومى فيبادرها بسؤاله:

- لماذا ارتديت ملابسك والوقت لا يزال مبكرا..

تتسع ابتسامة الفتاة فتضفى على وجنتيها نضارة فوق نضارته وتقول بتخابث برىء:

- ربما أركب " الأتوبيس " .. وتعلم كم سأعانى حتى أصل الى الجامعة .. وربما تفوتنى المحاضرة الأولى .. أما إذا بابا حبيبى وصلنى فسأجد وقتا للجلوس بالمكتبة لأتمام البحث .. ويحدثنى قلبى بأن الوالد لا يرضيه أن "تتبهدل" هذه الشياكة فى المواصلات

مع جملتها الأخيرة تلف رأسها بقوة فتعيد شعرها الأسود اللامع الى الخلف ، وقد تدلى حول رقبتها ، بينما يوجه اليها الأب نظرة لوم رحيمة ويقول:

- وأهم من بهدلة الشياكة هو بهدلتك أنت يا ابنتى..

فأنا مازلت غاضبا منك ياهدى ..

وتفهم هدى ما يقصد والدها .. فتقول فى دلال:

- مرة أخرى يا أبى .. قلت لك أتركنى حتى أنهى عامى الجامعى المتبقى وأكون كما تريد.

- أنا لا أريد يابنتى .. ربك هو الذى أمر باحتشام المرأة وحدد لها الزى الذى يرتضيه والذى يحفظ للمرأة كرامتها وعفتها .

- العام القادم بأذن الله .. ثم أننى لا أخرج عن حدود المألوف اجتماعيا.. ألا يكفى هذا مؤقتا .. والآن تناول فطورك بسرعة حتى توصلنى .

أقبل محمد وبيده الصحيفة .. جلس يقرأ باهتمام شديد ويصيح وهو ينظر الى والده

- خبر بمليون جنيه .. من الأخبار التى تحبها ياأبى .. ثم عاد - وأندمج فى القراءة بينما تضحك هدى وتعلق ساخرة :

- هذه هى تسعيرة الأخبار هذه الأيام .. بالتأكيد هذا الخبر من السوق السوداء وبأى عملة يكون الدفع ياسيد محمد بالعملة الصعبة "الدولار" أم بالعملة الأكثر صعوبة "الجنيه المصرى".

- معك حق يا هدى يا بنتى .. لم يعد أصعب من الجنيه المصرى..

يقتطع الحاج عبدالستار لقمة من رغيفه وهو يبسمل ثم ينظر الى زوجته فى مودة قائلا:

- نسيت الماء كالعادة ياحاجة.

تحاول الأم النهوض وهى تحذر الجميع بقولها:

- لا تقرأوا " الجرنال " من غيرى .
ولكن هدى تسبقها الى القيام قائلة :
- أستريحى أنت ياماما ..
أما الأب فينهى ضحكته قائلا :
- ماشاء الله "ياحاجة عزيزة" صرت تعرفين فى السياسة وفى أمور الدنيا أكثر منى.
- العفو يأبو محمد .. هو الجرنال أو سماع نشرة الأخبار يفيدان بشىء .. أنت مثقف يا حاج وتعرف كل شىء على أصوله .. تقابل كل يوم أناسا أشكالا وألوانا ، تتكلم معهم فى المسجد والمقهى والسيارة .
[تنهى كلامها ولا تزال محتفظة بابتسامتها العريضة ، وبعينيها الصافيتين وبوجهها العطوف على زوجها وأفراد أسرتها الصغيرة فيضحك الرجل ويقول:
- تسالى على الطريق ياعزيزتى.
- وعندما يشكولك أحدهم حاله وتترك له الأجرة تسالى أيضا ياحاج ؟ .. كيف يشتمون رائحتك .. كلما رآك إنسان لأول وهلة يبثك حزنه حتى يرق له قلبك .
- اليد العليا خير من اليد السفلى يا "أم محمد".. وخير ربنا كثير والحمد لله .. إياك أن تكونى غاضبة من هذا .
- أبدا والله ياحاج .. ربنا يحبب فيك خلقه .. لكن الوقت غير الوقت وما يحتاجه البيت..
يقاطعها:
- خطأ ياحاجة .. خطأ .. حذار أن يجرفك التيار يابنت الأصول
ثم يلتفت الى ابنه قائلا :
- هات ما عندك . أين الخبر الذى بالمليون.

يعتدل الابن فى جلسته ويترك الجريدة ، ويشرع فى تناول طعامه ويقول بعد البسمله :

- مشروع يتقدم به شاب مصرى لرى وزراعة خمسة وعشرين مليون فدانا بالصحراء الغربية .

يصيح الاب بابتهاج وقد ترك طعامه والتفت الى ابنه بتمام احساسه :

- بسم الله ما شاء الله .. مصر بخير مادام فيها ابناؤها المخلصون.

واصل محمد تناول طعامه دون تعليق .. اما هدى فتلتفت الى والدها قائلة :

- على مهلك يابابا .. لا تفرح هكذا .. المشروعات كثيرة ، ولكن أين التنفيذ لو كانوا أوجدوا حلا لأزمة المواصلات لأصلحوا خمسة وعشرين مليون فدانا ..

وهنا تتدخل الأم بقولها :

- معك حق يا هدى .. المواصلات فعلا عذاب - ولا راحة فى مشى ولا فى ركوب .. ربنا يلطف بعباده .

يلتفت محمد الى أمه معلقا :

- ماما وهدى ليس لهما مشكلة فى الدنيا سوى أزمة المواصلات .. البلد مليئة بالازمات والمشكلات .. فقط المواصلات هى التى تضايقكما ..تنهد وواصل كلامه :

- على كل حال أستطيع أن أدلكم على أسرع وسيلة لحل أزمة المواصلات اذا أردتم .. كم تدفعون ؟

ترد الأم :

- وهل عندك حل للأشياء الغريبة التى تسمعها هذه الايام .. ربنا يستر على بناتنا .

يطمئنها الأب :

ـ كلها شائعات يا حاجة .. لا تصدقين كل ما تسمعين الدنيا بخير ..المهم قل لنا يا محمد يا ابنى كيف تقدر على حل الازمة المستحكمة هذه .. وسوف أعطيك ما تطلب ..يبدو انك مفلس وتبيع افكارا هذه الايام .

يضحك محمد ويقول :

ـ الحل فى بساطة تامة .. أن هدى ومشيلاتها يلزمن البيت ، معززات مكرمات ..وبهذه الطريقة المبتكرة تتنفس المواصلات الصعداء ، وتنعم المصالح الحكومية بالهدوء ، ويضاعف الرجال انتاجهم ، وتعتدل الحال وتصبح عال العال .

كان محمد يتكلم بحماس وزهو ، بينما هدى تميل برأسها يمينا وشمالا مع ايقاع كلماته فما أن انتهى حتى أسرعت تخاطبه فى دلالها المعهود ..

ـ هذا بعيد عن شاربك .. أنت وأمثالك من الرجعيين .. مهما تصيحون .. لا عودة لعصر الحريم .. انا على استعداد لأن أذهب الى الجامعة سيرا على الاقدام ، وأترك لك المواصلات تحل أزمتها بعيداً عنى ..

ـ يميل محمد برأسه نحو أمه بينما عيناه متجهتان صوب هدى :

ـ اذن نأخذ رأى ماما فى هذا الموضوع لتقول لك اذا كانت سعيدة ببيتها أم تود أن تلحق بوظيفة ولو نصف الوقت. تضحك الأم ببراءة فطرية وتقول :

ـ وظيفة ..! وهل أفضل منكما وظيفة .. ولكن يابنى كل وقت وله آذان ، وليت كل الرجال مثل ابيك تعرف قيمة الست وتصونها.

يتجه محمد برأسه نحو والده قائلا :

ـ اذن جاء دور والدنا العزيز ليقول لنا رأيه فى اقتراحى المثالى لحل الأزمة .

يبتسم الاب فى عطف أبوى ويربت على كتف إبنه قائلا :
ـ " قال الله ولا قالك يا سى محمد " .. أنا لست معك .. اختك يجب ان تتعلم وتعمل وتعتمد على نفسها .
يقاطعه ابنه :
اذن فلا مانع عندك من ان تبحث أمى عن عمل لتعتمد على نفسها . ؟
ويسرع الاب :
ـ ماذا دهاك يا ولد .. وأين ذهبت انا . ؟
ينشرح صدر الابن ويحدج اخته بنظرة من كسب جولة ، ويتابع حديثه مع والده :
ـ ولماذا تريد لهدى أن تعمل ؟
يقهقه الاب وقد أدرك نية ابنه فى الايقاع به ويقول :
ـ هكذا نحن الرجالَ .. الرجل منا يريد زوجة متوفرة على خدمته ، وفى الوقت نفسه يتمنى لابنته ان تصعد الى عنان السماء .. ولا يتحكم فيها رجل . والأهم من ذلك يا سيد محمد أن رأيك هذا وراءه حيرة نفسية .. انت تفكر فى الزواج ولكنك حائر .. هل تختارها موظفة تساعدك على تكاليف الحياة .. أم تريدها ربة بيت تربى لك الأولاد .. على كل حال اذا اعجبتك واحدة بعينها فأنا مرحب وأمك ايضا موافقة ..
يضع الحاج يده على كتف زوجته معتمدا عليها وهو ينهض :
ـ معى يا عزيزتى .. ساعدينى على ارتداء ملابسى ، حتى لا نؤخر هدى عن كليتها ..
يمشيان الهوينا نحو غرفتهما ، بينما يلتفت محمد الى أخته ليكمل معها التحدى الذى بدآه :
ـ سمعتك تقولين بانك مستعدة للسير حتى الجامعة .. وهل

طريقك مرصوف تماما حتى تتحقق امنيتك فى المشى .. نقر .. حفر .. مطبات متعمدة وغير متعمدة .. مجار .. أناس تحتك بك بداع وبدون داع .. و ..

يلتفت الاب اليهما قبل ان يدلف الى غرفته :

ـ على مهلك قليلا يا محمد .. على مهلك يا بنى ـ لماذا كل هذا التشاؤم .. بدأت تنظر للحياة بمنظار أسود ، كلما أوشكت على التخرج .. الدنيا بخير يا بنى .. وبحسب ما تراها تعطيك .. ألم تقرأ منذ قليل بشائر الخير يقدمها واحد من الشبان المخلصين لوطنهم .. لماذا لا تكون مثله وتفكر فيما يمكن ان تقدمه لوطنك بدلا من التفكير فى نفسك فقط ؟

ويجيب الشاب فى انفعال مكبوت :

ألم تسمع بقصة الطبيب المعروف الذى خدم الانسانية سنين عمره . آخرها اكتشافه لدواء جديد يعالج مرضاً خطيراً وبدلا من أن نرحب باكتشافه ونشيد بجهده نسينا كل هذا وتمسكنا بالشكليات. فماذا تريدنى أن أعطيها : ؟

هز الرجل رأسه فى أسف ودلف الى حجرته بينما تقترب هدى من أخيها فى محاولة لتهدئته والمزاح معه :

ـ لا تحتد هكذا يا أخى لأن اقتراحك لم يلق قبولا ، واسألنى أنا عن الحل .. الست مواطنة صالحة .. اذن فبإمكانى تقديم الحلول .. وسوف اخبرك به دون مقابل .. أو بتخفيض يصل الى مائة في المائة " اوكازيون حقيقى " بل سوف اسمعك الحل اجباريا .. فقط أرى ابتسامتك .

افتر ثغر " محمد " عن نصف ابتسامة .. فقالت هدى :

ـ لابأس ـ هذه تكفى مؤقتا .. إليك بالحل الأمثل لأزمة المواصلات وازمة الانتاج وازمة الاخلاق ايضا .. عليك بتنظيم

الأسرة .. " أسرة صغيرة تساوى حياة أفضل " صرنا فوق الخمسين مليونا يا عزيزى ولا حياة لمن تنادى ولا احتراما لحبوب امان ولا (القفة ذات الودنين) المدعوة " التبس " وغيرهما من الوسائل العديدة المسخر نصف هذا العدد للدعاية لها دون جدوى .

غاضت ابتسامة الشاب وقال ساخرا :

- تنظيم الأسرة .. أهذا ما اقتنعت به أخيرا ؟ .. هل تعرفين أننا نشغل ٥٪ فقط من مساحة مصر أما ال ٩٥٪ فلا تزال صحراء جرداء لا نبت فيها ولا ماء ولا احد يدرى اذا كان عن سوء تخطيط ام سوء طالع .

اجابت بعناد :

- اذن فلا يزال رأيى هو الصواب .. فما دمنا لا نشغل سوى ٥٪ فقط من الارض فعلينا بضبط العدد حتى يتناسب مع هذه المساحة .

صاح الشاب مندهشا :

- اخشى ان تكونى مؤمنة حقا بما تقولين .. بهذا المشروع الفاشل .. أيهما أسهل .. نحدد العدد أم نصلح الأرض .. وهل الأنسان الذى استخلفه الله فى أرضه وخط له طريقه ومصيره وقال سبحانه " رفعت الاقلام وجفت الصحف " أيقدر انسان مثله ان يمنع وجوده .. هى قضية خاسرة قضية للجدل وليست للعمل .

عقبت هدى وهى تحاول أن تمازح أخاها :

- لماذا الغضب اذن .. وهذا صديقنا صاحب المشروع سيجعلك عما قريب ترمح فوق خمسة وعشرين مليونا من الأفدنة .

تزداد حدة الشاب :

لماذا عدم المبالاة ياهدى ..معك حق .. انت اليوم تأخذين مصروفك من والدك ، وغدا يأتى الزوج الذى يذوق الأمرين حتى يحقق لك

الحياة المترفة التى تحلم بها كل بنت .. فما لك وتلك المشكلات .
ـ لا يا سيدى الرجل .. البنت ليست مدللة كما تقول خاصة فى هذا الزمان .. لقد اتهمتها منذ قليل بأنها السبب فى ازدحام المواصلات ولو كنت حكما عدلا ما غاب عن ذهنك الوجه الآخر للعملة ، الوجه الحسن فى القضية وهو أنها تخرج للعمل وتكافح وتحس بالمعاناة .. وتشارك الرجل فى المسئوليات .
ـ اذن فما معنى تهكمك على كل كلمة أقولها ؟ :
ـ معناه أنك ثقيل الظل هذه الايام .. وتسبب لوالدك كثيرا من المتاعب بآرائك الجديدة فى الحياة .. ومزاحى معك محاولة فاشلة لتخفيف العبء عن أبى .. أرى المبادىء والمثل التى كافح أبى حتى يؤصلها فيك بدأت تتسرب من رأسك .. وهذا ما يزعج الوالد ويسبب له الأرق .. وانت ترى ان الأحلام المفزعة تعاوده من وقت لآخر ..
ـ اطرق الفتى وقد بدا صوته لينا :
ـ نعم .. أعرف .
ـ هل لى أن أسألك عما يضايقك ويجعلك متذمرا لهذا الحد .. لم تكن هكذا فى بداية العام والأعوام السابقة .. وأنت لم تتخرج بعد وأبى يعطيك مصروفك مثلى ويدللك كما يدللنى .. فهل لديك اجابة واضحة .. ؟
ـ أوه .. لماذا اجابة واضحة ..؟ لن تجدى عند أى شاب إجابة واضحة كل اجاباتهم بلا هوية ..
كان صوته يجمع بين الهدوء والأسى أما هدى فقد ربتت على كتفه فى حب أخوى وقالت :
ـ اما أنت فينبغى أن يكون لاجابتك مضمون .. انت تربيت على الدين والاخلاق الحميدة ، وقد أصل فيك والدك القيم والمبادىء ..

اما من تستشهد بهم فقد تركوا للشيطان فحق لهم ان يتوهوا ..
خفض محمد رأسه واكملت هدى كلامها وهى تمسح دمعة سالت فوق خدها :
- أرجوك ياأخى ،، أبى لا يستحق منك ما تسببه له من حيرة .
- تأكدى يا هدى اننى حريص على راحة أبى مثلك تماما ، ولكن تخوننى أعصابى احيانا كلما اصطدمت بالواقع .. انهضى أنت واذهبى الى كليتك ولا تحملى همى ..
ابتسمت هدى وداعبت أخاها فى صمت ثم اتجهت الى غرفة والديها تدق بابها :
- من فضلك يا بابا اسمع كلام ماما وارتد معطفك لابد انه سبب التأخير حتى الان .

* * *

تصر الزوجة أن يلبس زوجها البالطو الثقيل فاليوم يبدو شتويا قارصا مع احتمال وجود الرياح المتربة التى يمتاز بها شهر أمشير .. والزوج يضحك من ترديدها للنشرة الجوية ويطلب منها أن تعفيه منه لانه يعوقه اثناء القيادة .. ويدعو لها بالصحة والستر ولكنها تفاجئه بهذا السؤال :
- أراك على غير طبيعتك هذه الايام .. صرت تشاركنا الحديث وكأنك تؤدى واجبا ثقيلا عليك .. ماذا يشغلك ..؟
- والله ياحاجة .. بذلت جهدى حتى لا أشغلك معى ولكن مادام حالى واضحا فمن الافضل أن اعترف لك .
انا مهموم بالفعل .. ولكننى حائر فى معرفة السبب .
اخرج الرجل زفيرا حارا واكمل كلامه :
- احيانا اقلق لقلق " محمد " فقد بدأ يشغله مستقبله وأحاديثه بدت تتسم بالحيرة والتذمر ..

وأحيانا أتألم لكلمات الناس فى الشارع وفى المقهى والسيارة وفى كل مكان وكأنهم يطاردوننى .. الناس الآن يا ام محمد يتكلمون لغة لا أفهمها أحس بجرسها غريبا على أذنى ويطعمها مرا فى حلقى..اتكتمين سرا..؟ اننى أشعر بالغربة بين أصحاب هذه اللغة .. أشعر كأننى عدت لتوى من مكان بعيد لأجد أناسا غير الذين كنت أعرفهم وأتكلم لغتهم .. وأحيانا أظن أننى فقدت ذاكرتى عشرات السنين .. هل حدث هذا يا أم محمد ؟ أم نحن نعيش فى زمن غير زماننا .

كانت الزوجة الوفية تنصت الى زوجها والدهشة تملأ عينيها ، وما ان سكت حتى شرعت بقولها :

ـ غريب أمرك يا رجل .. تنصح ابنك بالتفاؤل ، وتحمل كل هذا اليأس فى داخلك .. أستغفر الله يا رجل وابعد عنك الشيطان ..

لم ينس " الحاج عبد الستار " قبل أن يغادر البيت أن يلف ذراعه حول كتفى ابنه ويضمه الى صدره ضمة قوية ويقول له :

ـ أنا غير راض عما تتفوه به هذه الايام .. نظرتك غير المطمئنة للحياة تخيفنى .. اعتقد ان لهذا التشاؤم سببا فى رأسك استطيع ان احدسه لك .

ـ أبدا يا بابا .. لا يوجد برأسى ما تخشاه..كنت امزح مع هدى..

ـ ليس مزاحا يابنى ، فأنت على وشك التخرج .. وتحمل هم الوظيفة والجيش والزواج وتكاليف الحياة .. أليس كذلك ..؟

ـ ربما ياوالدى .. ولكن ليس هذا وقته .

ـ انتظر يابنى حتى انهى كلامى .. انت تفكر فى السفر كما فعل صديقك الذى يرسل لك الخطابات أليس كذلك .. ؟

ـ ما هو .. انا .. لا ...

ـ أريدك أن تفهم أننى لا أوافق على ما يدور برأسك ..لن أسمح

لك بالسفر .. ضع هذا فى اعتبارك حتى لا تشتت ذهنك ..يمكنك هنا ان تحقق كل ما تصبو اليه ، ولكن يجب أن يأتى كل شىء فى وقته اما الآن فلا هم لك الا التقدير المرتفع ، نريد شهادة وعلما وبعدها سوف نجلس معا ونخطط لمستقبلك وفق ما تحب .

هز محمد رأسه بالايجاب أما الأب العطوف فقد مسح صدر ابنه براحة يده عسى ان يمحو ما يجيش به ويودع الطمأنينة مكانه .. ثم التفت الى ابنته قائلا:

- هيا ياهدى أوصلك فلا تتأخرين .

- هيا يا أبى حتى لا يتهمنا الرجال بالدلال.

- ٣ -

فى الطريق الى الجامعة لا تكف هدى عن الثرثرة .. تحاول أن تشرك والدها فى الحديث وهو يرد بأقتضاب شديد..

- سعيدة انا يا والدى بهذه "البيجو" التى حلت لنا أزمة المواصلات

- وحل أزمة الغذاء أيضا .. طلباتك انت وأخوك زادت يا هدى .

- لا ياسى بابا .. ليس الموضوع هكذا .. معاشك كبير والحمد لله ولكنك حريص على الا ترد من يسألك حاجة ، فتستزيد من الرزق لتعطيه للآخرين .

- .....

- بابا .. لماذا اراك مشغولا هذه الأيام .. هل أسألك السبب؟

- .....

- لا بأس.. أشخص لك الحالة .. فهم يعطوننا دورة طبية بجوار التجارة .. الحالة سرحان مع شرود طويل يصحبه تفكير عميق وقلق .. خذ نفسا عميقا ..

أستحضر الأب ابتسامة خفيفة ذابت سريعا وقال:

- والله يا هدى المرض الذى أتى فجأة "لسيد افندى" جارنا .. يؤرقنى..شفاك الله ياسيد افندى .

- ما هذا يابابا .. لقد نذرت نفسك للناس ولا بأس فنحن موافقون .. أو قل أعتدنا عليه .

تشاركهم بما تقدر عليه وقد جدت بمالك وبخبرتك .. أما المرض فما حيلتك فيه ..

- حيلتى الدعاء له يا ابنتى ولكل مريض بالشفاء.

- ارجوك يا أبى لا تعذب نفسك هكذا .. وتعذبنا معك .. صراحة أنا وأخى لا نبوح لك بما يشغلنا حتى لا نحملك مزيدا من

الهموم.
ـ تصرف خطأ يا هدى .. انتما ولداى واحق الناس بوقتى ونصحى.
هزت الفتاة رأسها واطالت التأمل فى وجه ابيها.. لانت ملامحها ورق صوتها وهى تقول :
ـ لى طلب عندك يا أبى .
ـ ماذا ياهدى؟
ـ ليتك تعود الى البيت .. انت متعب اليوم والقيادة تحتاج قوة أعصاب ، وصفاء ذهن .
ـ حاضر "يادودو" سأتبع نصحك .. بالفعل سأعود.. قال ذلك وهو يدير عجلة قيادته ليقف بالسيارة الى جوار الرصيف .. توقف والتفت الى ابنته باسما وقال :
ـ تفضلى ياهدى وأطمئنى .. انتبهى الى محاضراتك حتى لا يشمت فيك اخوك ويجلب لك عريسا مثله يفضل التزامك البيت .
تفتح هدى باب السيارة ضاحكة وتقول قبل أن تهم بالنزول:
ـ أطمئن انت يابابا.. سأجلب له انا العروس التى تلزمه هو البيت.
انصرف الرجل وضحكات ابنته ، ونصيحتها له بالعودة الى البيت ترنان فى اذنه . وقلبه يرجف ولايدرى له سببا مقنعا شأن ما يحدث هذه الايام .
عبارة ابنته عن معاشه الكبير لاتزال فى بؤرة شعوره ، فلاحت على وجهه ابتسامة تحمل بقايا حزن قديم وهو يتذكر انه قدم استقالته قبل سنتين من بلوغه الستين ، ولمدة خبرته الطويلة استحق معاشا كاملا ، فضلا عن مكافأة كبيرة عن مدة خدمته السابقة فى الشركة نفسها قبل تأميمها وتطبيق قانون المعاشات والتأمينات الاجتماعية .. واضاف الى هذه المكافأة حقه فى

صندوق الزمالة بالشركة .. واشترى البيجو ليتغلب على الملل الذى ينتظره بعد خروجه على المعاش ولزيادة دخله حتى يتمكن من البر باخوانه كما تعود وعودهم .

.. ومع مرور الأيام وغلاء الأسعار صار معاشه الشهرى بالاضافة الى ما يجمعه من ايجار عن الخمس الشقق الاخرى فى بيته لايقاوم الغلاء .

تاقت نفسه الى فنجان من القهوة ، أوقف سيارته امام المقهى الذى اعتاد ان يجلس به ، مقهى " حندس " للسائقين كان شاردا وهو يحتسى فنجانه.. اقبل عليه احد زملائه السائقين فأخذا يتجاذبان اطراف الحديث بعد ان طلب الرجل قدحين من الشاى .

جاء صبى المقهى يطوح صينيته فى الهواء :

ـ الشاى المضبوط .

وضع الصبى كوبى الشاى امامهما ، ورفع فنجان القهوة الفارغ ، بينما قال رفيقه هامسا :

ـ احوالك لا تعجبنى " يا حاج عبد الستار " ؟

ـ يطاردنى حلم مزعج منذ فترة ويظل اثره ومعناه يرجفان قلبى طوال اليوم .

ـ أهذا كلام يقوله " الحاج " أتشغلك الاحلام الى هذا الحد يا رجل .. انت مؤمن بالله ولا تكون رؤياك إلا خيرا ..

ـ ونعم بالله .. الله يطمئنك ياصديقي ويشملك بعطفه وكرمه ..

وبعد محادثة قصيرة بين الرجلين تتخللها التسابيح والدعوات بالخير وضع صاحبنا كوب الشاى الفارغ فوق المائدة ونهض :

ـ السلام عليكم .. سأعود الى بيتى لأستريح قليلا ..

* * *

تابع " الحاج عبدالستار " طريقه وذكرياته .. عاد بذهنه الى أيام

الوظيفة وكيف عاش فى سلام مع زملائه طوال فترة الخدمة لايحمل عداء لأحد ولا يضمر أحد له ضغينة إلى أن جاء المدير الجديد الذى يحابى بعض الموظفين على حساب البعض الأخر والذى يعير أذنه لكل من يلقى فيها بوشايته ، ونميمته ، فاذا بالزملاء يتسابقون فى احتجاز تلك الأذن ، واروائها بما لديهم من فنون القول ومواهب الدس وتنافس الجميع لكسب رضا المدير الجديد على حساب بعضهم البعض .

وتذكر كيف أن ذلك الانقلاب فى الامور والقيم لحق ايضا بالفراشين فما عادوا يلبون الطلبات إلا بفرض " البقشيش " الكبير على الموظف قليل الدخل ، وشعارهم الذى يتفكهون به فيما بينهم .. والذى سمعه مصادفة " لا طاعة لرئيس الا بفك الكيس "

وتضاعف بذلك دخل الفراش على دخل رئيسه فى العمل ..

وتذكر انه الوحيد الذى وقف فى وجه المدير ليقول له :

ـ لا .. أرفض أن أكون جاسوسا على زملائى . وحمدا لله اننى اكملت مدة خدمتى وزيادة ، وبإمكانى أن استريح .

قال هذا ونظر الى زملائه وهو يرجو أن يكون قد استن لهم سنة يسيرون عليها ، ولكن ليس أمام الحاجة الى لقمة العيش سنة تتبع .

شخص واحد هو الذى حذا حذو عبدالستار وهو صديق عمره الحاج " مصطفى الكيال " جاره فى البيت وزميله فى العمل ولان ظروفهما فى العمل متشابهة فقد فضل هو الأخر ان يقدم استقالته مثل صديقه ، وقد حصل كل منهما على مكافأة متساوية ومعاش كامل .. ثم أخذا يفكران معا فى وسيلة اخرى يستثمران فيها أموالهما .

اثمرت مباحثات الصديقين الحميمين .. واستجاب الحاج لنصيحة صديقه فى أن يعيد فتح بقالة والده فالمحل موجود ومغلق من

سنين .
اما صاحبنا فلا يطيق الجلوس فوق كرسى طوال اليوم فهو كالطير لا يهدأ فى مكان .. وهداه تفكيره لأن يشترى سيارة أجرة يعمل عليها قدر جهده .
ولم تفلح محاولات اولاده فى إثنائه عن رأيه ، فقد طرقوا له كل السبل وساقوا اليه جميع الحجج .
ـ هذا العمل سيرهقك ويحرجنا .
ـ ليس فى العمل الشريف ارهاق ولا احراج .
ـ سوف يكسبك عادات والفاظا لا تحبها .
ـ من شب على شىء شاب عليه .
ولم يتبق امامهم سوى زاوية واحدة يجب طرقها حيث انه لا يستطيع أمامها مكابرة ألا وهى زاوية الحلال والحرام .
ـ " التاكسى " اليوم يشحن عدة زبائن ولا يستعمل العداد لانه لا يأتى بمصاريف السيارة فتكون شبهة والناس تدفع الاجرة وهى مضطرة ومغتاظة ، فلا بركة فى ارباحه .
يصمت الرجل الطيب قليلا فيظن أولاده أن خطتهم كتب لها النجاح فاذا به يفاجئهم بفكرة جديدة وهى أن يشترى سيارة "بيجو سبعة راكب" من القاهرة الى الأسكندرية ، ولكنه فضل اختصار المشوار الى طنطا لكبر سنه من ناحية ، وحتى يجد الوقت الذى تعود ان يمضيه مع اصدقائه وجيرانه من ناحية اخرى ، ثم أن التعامل مع مثل هذه السيارات لايحتمل اية شبهة لأن لها قانونا وعرفا ، فهى تنتظر فى دورها ، ولاتزيد حمولتها ثم أن أجرة الراكب محددة .. ولم يجد أولاده امام اصراره مفرا من أن يباركوا مشروعه .
ما أن دخلت البيجو الحارة وهى تحمل الحاج عبدالستار حتى تسابق اطفال الحى يلتفون حولها ، ويتسلقونها وهم يغنون

ويصفقون - عودهم الحاج الا يغضبهم - ويظلون هكذا حتى يوصلونه الى الجراج الذى تبيت فيه السيارة ، ثم يلتفت اليهم يشكرهم على توصيلهم له .. ويلتفون حوله مطالبين بالأجرة فيخرج نقوده ويبدأ فى سؤالهم :

ـ انت ماذا ستشترى بالنقود .. ؟ وانت ماذا تريد ؟ تفضل انت.. وانت .

ويظل يوزع نقوده عليهم وضحكاته وبسملته حولهم حتى ينصرفوا من حوله ويتوارون عن عينه ..

- ٤ -

لم يصبح الحى الذى يقطنه "عبدالستار" مدينة فاضلة كالتى عاشت فى تفكيره .. وبقيت المدينة الفاضلة حلما فى خيال كل من افلاطون وعبدالستار .

والرجل يؤمن أن كل شىء من حوله قد تغير ، ولكنه يؤمن أن هذا التغير كالمكروب الذى يصيب الجسد لفترة وما يلبث أن يبرأ منه ، فهو يصبر نفسه ويستمر فيما تعود عليه رغم احساسه بالمآسى التى تحوطه .

خطواته لاتزال رتيبة وانفاسه لاهثة لا تلاحق الاحداث ، فكلما حاول أن يستوعب حدثا ويتشربه يتبعه الآخر ، وكما أنه جبل على حب الناس .. ازعجه الواقع وضعضع كيانه وكأن هذا الواقع ناقوس يدق فوق يافوخه فيحدث فيه شروخا تنز معها دماء قلبه الذى لايعرف سوى المحبة .. والخير ..

- ماذا اصابك يارجل .. لم نعد نعرفك .. فيم شرودك المستمر ؟

- فى احوال الدنيا والناس .. يا حاج مصطفى ..

- وهل ستصلح الكون .. ياللا حسن الختام.. الحال اصبح لا يسر.

صمت الحاج مصطفى قليلا ثم مال على أذن صديقه قائلا :

- أتعرف ماذا حدث لجارتك " ام سعيد "

- انتفض الحاج عبدالستار وجذب صديقه من طوق جلبابه :

- لم يكن هذا هو المقصود من فتح دكان والدك ياحاج مصطفى .

- وماذا قصرت فيه يا رجل ..؟ مازلت ابيع بالتسعيرة وبالأجل حسب اتفاقنا .. رغم أن هذا مبدأ انتهى زمانه ورغم أن بعضهم يستغل هذا الكرم ويراوغنى فى السداد مع قدراتهم المالية .

- ولكنك تشغل نفسك بأشياء لا تليق بك وبسنك ؟

- وماذا أفعل طوال اليوم .. ولا أجيد فنا للتسلية غير التحدث مع هذا وذاك ، والسؤال عن اخبار فلان وعلان ؟

- ثم تجمع أخبارك وتصبها فى أذنى كل مساء .. وكأنك تلقى على مسامعى حدوتة قبل النوم .. وبعدها تتركنى للأحلام المزعجة تفعل بى فعلها .. وتعبث بعقلى ما بدا لها العبث .

تنهد الحاج مصطفى وقال :

- وما ذنبى اذا كنت تأخذ الامور بحساسية مفرطة .

- كيف لا أخذها بحساسية وانت تشهدنى على جيرانى وهم يتساقطون كأوراق الشجر فى الخريف هل من السهل على أن أعرف بقصة " سيد عبداخى " الرجل المكافح صاحب الكرم والأصل الطيب - اختلس من البنوك مبلغ ستين مليون جنيه . وكنا نعده من خيرة الناس الذين كلما ارتفع شأنهم ازدادوا تواضعا وكرما .

يضيف الحاج مصطفى قائلا :

- وأعرف أيضا كم حزنت للخبر ولزمت فراشك أسبوعا كاملا .

- المفاجأة يا صديقى اذهلتنى ، لم أتصور أن الرجل تخبله الدنيا الى هذا الحد فيستحل أموال الناس لينفقها على ترفه وملذاته .. وازعجنى غياب الرقابة إلى هذا الحد .

- غيره استحل أن يطعم الناس لحم الكلاب والحمير وثالث استحل أن يسقيهم السموم البيضاء والزرقاء ..

تغير وجه الحاج عبدالستار ورفع يده فى وجه صديقه فى أسف قائلا :

- اسكت يا أخى لا تذكرنى .. وهل انسى حين اخبرتنى بأن "الولد شعبان ابن امبارح" ذا الثلاثة عشر أدمن المخدرات .. يومها لم اصدقك .. فأنا أراه يتعلق بالسيارة مع الصبية لأعطيه نقودا ، انه ولد مكافح أكلت الحدادة من يديه وفى اليوم التالى قابلته وقلت له لن أعطيك نقودا بعد اليوم .. فأنت تشترى بها البودرة فاذا بالولد تنقلب سحنته فى الحال وينظر الى بعينين سليطتين ، وبدلا من أن ينفى عن نفسه تهمة كهذه تطاول على باللفظ ..

واتهم نصف صبية الحارة بأنهم على شاكلته ..
ثم أن والده هرول على صوت ابنه وما ان وقف على الخبر حتى شد اذنه وهو يقول له :
ـ غبى ضيعت على نفسك نقود الحاج الوفيرة .
ـ كدت اجن وفوضت امرى لله .
أكمل له الحاج مصطفى بقوله :
ـ ليس هذا فقط .. وظللت مكتئبا لعدة ايام حتى كاد يهلك اولادك حزنا عليك .
ـ لأجلهم فقط اقاوم " والله " فقد وجب على الجمل أن يبرك منذ زمن .
ـ لا يا صديقى تجلد .. قريحة الزمن تجود كل يوم بالمفاجآت وما تسمعه عن أهل حارتنا ماهو الا صورة مصغرة لما يحدث خارجها.
تنهد الحاج عبدالستار واكتسى صوته بحنو أخوى وقال :
يعز على أن اجدك مهتما بأخبار الناس وتتبع سيرتهم والتحدث بها .. هذه نميمة يا حاج .. يا تقى ..
اطرق الحاج مصطفى قليلا ثم مسح ذقنه وهو يقول :
ـ ليست نميمة .. كلها أشياء واضحة للعيان .. ثم أن النميمة قد تطورت بتطور الزمن .. هى " نميمة اجتماعية " لها علاقة بالظروف العامة والمناخ الأجتماعى .. اسمع هذه وقل لى هل تسمى ما سأقوله لك الآن نميمة .
مال على اذن صديقه واسر له ببضع كلمات اصابت الحاج بذعر شديد فصاح :
ـ لا يا رجل .. لا .. قل كلاما غيره . .
برقت عينا " الحاج مصطفى " قائلا :
ـ اتسمى هذه نميمة .. اصمت ام أكمل لك القصة .
ـ القصة .. اى قصة قلت لك قل غير ذلك .. انك تهذى يا رجل.

- اقسم .. كما قلت لك بالتمام .
رفع عينيه الى السماء وهو يكلم نفسه بصوت مسموع :
- بنت الاستاذ " حسين " الرجل النظيف والمربى الفاضل ؟
- هى بعينها .. الم تلحظ شرود الرجل وكيف يمشى مهموما منكسرا .
- لم أعد ألحظ شيئا .. والذئاب الملاعين .. اين هم ؟
- هربوا ..
والبنت المسكينة .. كيف حالها الآن ؟
- راقدة فى سريرها .. يا ولداه محطمة النفس والجسد .. ربنا يصبر والديها ..
مصمص شفتيه :
- ومن أخبرك بهذا الخبر الاسود ؟
- ابوها بنفسه .. انهار هنا امام باب المحل فأدخلته بعيدا عن اعين الناس وظل يبكى حتى تورمت عيناه ثم اكد على ألا أخبرك أنت بالذات لانه يدرك وقع الخبر عليك ..
- .....
- .....
بعد صمت غير طويل انفرجت شفتا الرجل :
- لا حول ولا قوة الا بالله .. ماذا أقول غير ذلك .. شىء لا يستوعبه العقل .. كيف يجتمع هؤلاء الوحوش على فتاة بريئة صغيرة لا حول لها ولا طول .. انها القيامة .. القيامة والله .. الاعدام لهولاء .. قليل الاعدام .. اشعال النار بأجسادهم حتى يصبحوا رمادا تذروه الرياح .. آه لو تمسكهم يدى ، امزق لحومهم بأسنانى أدوس عليهم بالسيارة عشرين مرة ..
حسبنا الله ونعم الوكيل .. حسبنا الله ونعم الوكيل ..
ضرب الارض بقدميه .. تلفت حواليه .. رفع وجهه للسماء ..

بصق على الارض .. أخرج منديله يمسح جبهته .. ربت الحاج مصطفى على كتفيه :

ـ يكفى يا حاج .. يكفى ما أنت فيه .. الاستاذ حسين محق فى تأكيده لى الا تعرف . وماذا فى قدرة عبدالستار غير أن يضرب كفا بكف وأن ينهار وأن يكتئب وأن يحدث نفسه ليلا ونهارا .. وماذا بعد؟

ففى كل يوم نهار جديد وقصة جديدة اكثر بشاعة من سابقتها شاب اطلق النار على والديه .. زوج مزق جسد زوجته ووزعه على صناديق القمامة..ام تقتل ابنها الشاب من اجل حبها الجديد. وكل قصة تحدث شرخا فى جدار مخه المتين أو الذى كان متينا ..وكل يوم يقربه من الهاوية ولا يزال يضرب كفا بكف.

دفعته زوجته الى المقهى دفعا ، فمنذ ان سمع قصة الفتاه وهو ملازم لبيته ، وهو متوجه الى القبلة يناجى ربه بهمهمات مجهوله لمن عداه..

استجاب الرجل تحت الضغط الشديد ..جلس فى المقهى شاردا مهموما.

ـ ماذا بك ياحاج " عبدالستار "همك زائد هذه الأيام ؟

طرق سمعه السؤال .. التفت .. التقت عيناه بعينى احد زملائه السائقين .. رد عليه وهو اكثر وجوما :

ـ افلام سينما .. مسلسلات تليفزيون .. المخدرات.. البطالة.. السفر.. التسكع فى الشوارع..

كان الرجل يستمع اليه فى دهشه ليكتم ضحكة تهكمية كادت تفلت منه .. وظل يحبس انفاسه حتى اطلع عما يعتلج فى نفس الرجل ، فافلتت ضحكته قائلا:

ـ معك حق يارجل .. أهذه افلام .. انهم يضحكون بها على السذج من الناس .. هناك نوعية اخرى لا يراها سوى المثقفين

واسمها فى عرف اصحابها " افلام سكافية"
وينخدع الرجل الفاضل بالعنوان .. "افلام ثقافيه" ردد الاسم باعجاب .. ثم اتجه الى زميله معتذرا :
- آسف يا أخى ليس لدى جهاز فيديو ، والا طلبت منك أحد هذه الأفلام على سبيل الاعارة .
ويضحك الرجل الخبيث من كلام الحاج حتى ينقلب على قفاه ويقول:
- المسألة بسيطة .. انا أدعوك لمشاهدتها فى بيتى .
ويجيبب الحاج فى طيبه وحسن نيه :
- ولكنى أود ان تشاهدها معى زوجتى والاولاد [ويزداد مكر الرجل ويقول:
- شاهدها انت أولا .. ثم تدبر امر الزوجة والاولاد. [ويقع الرجل الطيب فى الشرك وكانت الطامة الكبرى .. هاج وماج .. أرغى وأزبد . سب ولعن وكاد يحطم جهازى التلفزيون والفيديو لولا ان كتفوه .. واخذ يركلهم بقدميه ويصيح فيهم حرام .. حرام ..
فى فراشه تلاحقه الصور والضجيج .. و ... وفنون الرذيلة .. يدفعها بيديه فى الهواء تقترب أكثر وأكثر .. ينقلب على وجهه .. يدس عينيه فى وسادته ويفكر .
- هذا الفسق هل تراه أولادى .. لا أظن .. لابل قد رأيته . لا يمكن ابدا لقد ربيتهم .. ولكن شاهدت انا نفسى .. لا حول ولا قوه الا بالله .
- يا محمد .. ياهدى .. ياحاجه .
اسرعو إليه .
- هل رأيتم أفلاما ثقافيه ..
- نشاهد ما يعرضه التليفزيون ولا نذهب الى السينما كما تعلم .. - أعلم .. أعلم يا محمد " ولكن أفلام الفيديو .

تضحك هدى وتقول فى براءة .
ـ لقد شاهدت فيلما جديدا عند صديقتى .. كان رائعا و..
ـ هو ذا .. هو .. ذا .. يا ملعونة .. فيلم ثقافى أكيد ..
.. لم أكن أظنك كذلك .
ـ ماذا تعنى يابابا .. أتقصد أفلام الخيال العلمى ..؟
ـ خيال علمى .. ؟ ما هذا..؟
ـ اذا أردت أن تعرف .. أشترلنا فيديو..
يصرخ الأب .. لا .. لا .. لا .. حرام .. حرام ..

* * * *

أيام بطيئة مرت .. يبحث محمد خلالها عن وسيلة يخرج بها والده من حالة أكتئابه التى طالت .. ووجد فى هذا النبأ ضالته فأسرع الى والده :
ـ صابر أفندى .. قبض عليه فى قضية رشوه .
نهض الرجل من فراشه فزعا :
ـ غير معقول .. صابر لا يفعلها .. له أطفال ولا يرضى أن يطعمهم الحرام .. أنا أعرفه جيدا..
ـ أنت لا تعرف احدا ؟
ـ ماذا قلت ياولد .. ؟
تراجع الشاب أمام أستفسار والده الذى جمع بين الدهشة والذهول..
ـ أبدا يابابا .. لم أقل شيئا .. فقط أردت أخبارك بحال جارنا حتى تزوره وتواسيه فى ظروفه .
ـ نعم سأزوره .. وستكون معى .. حتى تفهم الحقيقة .. صابر لا يمكن أن يكذب على .
،صدق حدس الرجل فى النصف الثانى فقط .. فلم يكذب عليه جاره صابر أفندى بل قال فى بساطة ثقيلة على اذنه:

جاره صابر أفندى بل قال فى بساطة ثقيلة على اذنه:
- نعم يا حاج .. وما الخطأ فيها .. راتبى حتى الان تسعون جنيها ولدى ثلاثة أطفال والأم .. إيجار الشقة ثلاثون جنيها وانت وأهل الحارة تعرفون قصة بيتى القديم الذى (انهدم) فوق رءوسنا بفعل صاحبه " رجب النقاش " ولولا تدخلك ما تمكنت من الحصول على هذه الشقة فى عمارته الجديدة مقابل أن أخلى له بيته القديم الذى دفع الرشاوى حتى يحصل على قرار بهدمه ..
والاسعار لا تخفى عليك وتعليم المدارس لا يأتى بنتيجته الا بالدروس الخصوصية و.. وكل شىء واضح دون تفصيل .. فهل هناك وسيلة أخرى غير الرشوه .
وينقبض صدر " الحاج عبدالستار " لبجاحة "صابر" الذى يواصل كلامه بهدوء وأقتناع .
- ولماذا هى رشوة .. هذا ثمن خدمة قمت بها .. أجتهاد شخصى فى مجال عملى لزيادة دخلى .. كل أنسان من حقه أن يزيد دخله بما يجيد من أعمال.. والرجل دفع وهو سعيد بالمجاز مهمته فما دخل " البوليس " بين طرفين بينهما تراض .. أتظن أننى هنا لأن الرجل الذى دفع ما تسمونه رشوة قد شكانى ؟ .. أبدا .. هى غيرة موظف زميل كان يود أن يكون هذا الرزق له .. ولكن العميل " أستلطفنى أنا " وربك مقسم الأرزاق..ولكن ماذا تقول فى الجشع
صمت الرجل برهة وهو يتنهد ، وأتسعت حدقتا الحاج وهو يتابع مصمصة شفاه الرجل معترضا على وجوده ضيفا رغم أنفه على هذا المكان الذى لا يسمى .
أقول لك شيئا تدهش له ياحاج "عبدالستار" العميل ينكر أنه أعطانى شيئا ، ولكننى لن أنكر .. وسأقول لمن يسألنى دلنى على البديل .

.. ولم أسرق البنك .. ولم أقم مشروعات وهمية مستغلا حاجة الناس فقط أنجز أعمالا .. ما الخطأ فى هذا ..

تنفرج شفتا الحاج عن تنهيدة :

ـ ولكنك تستغل وظيفتك ..

ويجيب "صابر" بالحماس نفسه :

ـ وهى المهنة التى اجيدها .. أى اننى أشتغلت فى حدود امكاناتى ..

ضاق صدر عبدالستار لتبريرات المرتشى.. يلتفت الى ابنه المتخرج فى الجامعة منذ شهور .. يقرأ فى عينيه .. احاط كتفه بيده عائدين:

ـ يابنى .. هذه مغالطات .. الحلال مهما كان قليلا فهو مملوء بالبركة .. والبركة تجعل القليل يكفى ويفيض .

ـ يابنى "الطريق المستقيم هو أقصر الطرق للوصول بين نقطتين" "والسير المستقيم هو أسرع الوسائل للوصول الى الهدف" ["والصدق هو أقصر الطرق للاقناع "]

"وامشى عدل يحتار عدوك فيك"

وينفلت لسان الشاب .. يلقى بما يجيش به صدره :

ـ لا ياأبى .. كلها نظريات قديمه وحكم بالية .. جيلنا المطحون لا تعزيه هذه العبارات التى أبتدعها جيلكم فى ظل لين العيش ويسر الحياة.

اليوم لو أمشى "عدل" لن يحتار فىّ عدوى بل سيفهمنى ويعرف مقتلى .. والذى سيحتار فىّ هو صديقى وحبيبى هذا اذا بقى لى صديق أو حبيب .. سيظننى ابله تارة ، وخبيثا تارة أخرى والعب بالبيضة والحجر تارة ثالثة.

وحتى أمشى "عدل" فلابد أن تكون أرضى التى أمشى فوقها

مستوية حتى تستوى مشيتى .. أما والناس ماكرة وملتوية وشعارها " أنا وبعدى الطوفان" فكيف تستوى مشيتى.
لا يعطى الشاب لوالده فرصة يزدرد ريقه فيكمل:
- يجب أن يتغير أحدنا ، وأنا وحيد وأعزل وأجهل طبيعة الطريق الذى تريدنى أن أمشى فيه بأعتدال .
"فالطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة بين نقطتين بينها مستو" [أنتفض الأب وأشار لابنه بأن يصمت .. وتكلم من خلال صوته المخنوق ، وحلقه الجاف :
- ذبحتنى يابنى بمنطقك هذا ..من أين تعلمته ولم أعلمه لك.. ؟ كيف تستعذبه وأنت تواظب على الصلاة ..؟ كيف .. أخبرنى قبل أن أفقد صوابى ؟
- هون عليك يا والدى ، فلا أزال محافظا على صلواتى ولا أعصى الله .. والفضل لك .. ولا زلت أطيعك وها أنت ذا ترانى قاعدا فى البيت أنتظر الوظيفة لانك تريد أن ترانى مهندسا ولا بديل لذلك ، ولو ترك الامر لى لاشتغلت نقاشا أو نجارا أو سمكريا لتكون لى قيمة فى الحياة .
حاول الأب الكلام مرة أخرى . ولكن قاطعه ابنه بقوله :[- يوجد تيار قوى يهدم كل المبادىء .. رياح خماسين مسمومة تؤذى العين ، وتسد الفم وتصم الأذن بصفيرها فما حيلتى أمام عينين وفم مشبعين بالأتربة ، ورأس مصدع مشتت لا يلاحق الواقع .
سامحنى ياولدى إذا قلت لك أنك آذيتنى بما غرست فىّ من قيم .. جعلتنى أقف أمام الريح العاصفة مكتوف الأيدى .
..أصده بصدرى العارى ، حصاه يصلنى من كل اتجاه ، وقوتى ضعيفة ، وملابسى خفيفة لا تقاوم التيار والرمل والحصى والصفير والضجيج والبريق ..
ليتك يا والدى تخرج من كهفك وتتأمل الواقع المتناقض من

حولك..أنت لا تزال تعتقد أنك تسعد الأطفال بقروشك القليلة ..
هل تعرف كم يكسب الولد الصغير وهو لا يزال يحمل كتبه ويذهب الى المدرسة .
لم يعد أحدا فقير لقروشك .. هناك فقر من نوع آخر .. فقر غريب ، فقر يتمثل فى الشكوى الجماعية من الغلاء .. فقر يتمثل فى عدم الأكتفاء ومد اليد ، رغم أنك بالكاد تجد شغالة لمنزلك و براتب خيالى .. أو تحصل على عامل يصلح لك شيئا ..
نحن يا أبى أشبه بجماعة ملتفة حول صينية مملوءة بالطعام .. ولا أحد يأكل من أمامه .. كل واحد يأكل من أمام الآخر .. والكل فى سرعة خوفا من نفاد الطعام فى النهاية الكل يشبع ولكن من أمام الآخر..
ولا أحد يدرك أنه لو أكل من أمامه أيضا سيشبع مع توافر النظام .. من يضمن لهم .. ينقصهم الأطمئنان .. أما من يدرك هذه الحقيقة فهو غير مستعد لأن يتوقف ويلقى بخطبته بين القوم الجوعى "فساعة البطون تتوه العقول" والتخمة لا تبقى على شىء ..لا تقل أننى القى بنظريات جوفاء فترجمة ما قلته تراه أمامك .. المدرس يرغم الطالب على الدرس الخصوصى .. وسائق التاكسى يرغم الراكب على دفع اكثر من العداد .. والطبيب تسعيرته فى يده ، اذا انتظرت بسعر ، واذا استعجلت بسعر ، والتاجر يرفع تسعيرته كما يحلو له .. والتاجر هو الفاكهى والقصاب والبدال وصاحب السكن ..
اما الحرفى فهوائى المزاج ، عليك أن تدفع ما يطلبه وأن تصبر عليه حتى ينجز عمله والموظف هو الذى يدفع للتاجر والحرفى والطبيب والمدرس وسائق التاكس وغيرهم ، ثم يعود ويأخذها منهم فى صوره رشوة ، فلماذا لا يضع الموظف لنفسه تسعيره يسترجع بها نقوده المبعثرة رغم أنفه ، مادامو جميعهم يحتاجون اليه فى

انجاز مهامهم .. وبذلك تتم المعادلة الصعبة ويحصل كل منهم على حقه ولكن من أمام الآخر.
لم يتمالك الاب نفسه . ،كأنه يستمع الى ابن غير ابنه .. أستند الى أول شيء لمسته يده .. وتمتم ولكن صوته لم يصل الى مسامع الابن الذى قال:
- صورة بشعة .. اعرف ذلك .. لكنها الواقع الذى تغلق عينيك عنه .
دفع الرجل بصوته فاستنكره .. أحس به آتيا من عالم اخر .. عالم كله أظافر تنهش فى الوجوه .. وأى بعين خياله كل الوجوه دامية ، والاظافر لا تتوقف . وتساءل الأب رغم الغصة التى تسد حلقه . - اذن انت تشجع المرتشى ، وتؤيد القاتل وتعذر المغتصب وتتعاطف مع الوصولى وتشجع المدمن...
- لا .. لا ياأبى .. أنا لا أشجع أحدا .. ولا أتعاطف مع أحد .. فقط أفسر لك الحال كما آراه .. وأحاول أن أجد له المبرر.
سأله الأب وهو يتحدى ضعفه :
- وما هو المبرر أيها المحلل الاجتماعى والنفسى؟
- هناك طاقات معطلة ومهملة .. ومادامت السلبية هى شعارنا ، ومادام هناك خلاف حول القدوه ومواصفاتها وخلاف فى معنى الانتماء .. وفى ظل التذبذب فى العقيدة والفراغ الدينى الرهيب..لا تستنكر الواقع .. أن ما تراه ما هو الا صرخة احتجاج واعلان للرفض.
- وهو يفتح باب الشقة وقف الأب يترنح .. أسرعت هدى بمساعدة محمد وامسكا به .. واجلساه .. وأخذت هدى تحرك الهواء أمام وجهه، بينما انكفأ محمد يدلك له ذراعيه ويعتذر له ..
لم تطق هدى صبرا فصاحت فى أخيها .
- أنت السبب .. أنت السبب .. وانفجرت تبكى بدموع ساخنة .

انتصف الليل ولا تزال الحاجة عزيزة تراقب زوجها وهو يتقلب فى فراشه ويهلوس بكلام غريب .. حتى نفد صبرها فهزته.

- بسم الله الرحمن الرحيم .. خذ اشرب كوب ماء بارد..

ماذا يفزعك ياحاج..؟

- غول .. غول كبير ضخم يلتهم كل الأشياء فى طريقه .. بشر .. زرع .. ضرع .. غول له فكان كل منهما غول.

اقتحمت هدى الغرفة واسرعت باحتضان والدها وهى تصيح فى أسى :

- اسكت يابابا .. أرجوك اسكت .. لا تتكلم هكذا .

يظل " عبدالستار" شاخصا وكأن ناظريه مثبتتان على جهاز سحرى ينقل اليه تفاصيل الحلم الذى أفزعه ويعيده أمام عينيه مرة أخرى.. نحى ابنته برفق واستمر فى الوصف.

- غول يزحف من الجنوب يخنق كل ما يصادفه ، يحيله الى رماد وشقوق وهياكل .. يندفع نحوى ونحوك يا هدى ونحو أخيك .. ونحن نجرى فى فزع .. نصرخ فى رعب .. نستغيث .. سنغرق .. سنغرق .. لاحت على شفتيه أبتسامة باهتة قائلا :

- اسمعتما عمن يغرق فى شبر ماء .. سنغرق بدون هذا الشبر .. سنغرق فى الجفاف .. سنتحول الى هياكل وشقوق ورماد..

تمسح الزوجة دموعها بطرف طرحتها وتقول :

- صل على النبى يا حاج .. أستعذ بالله ياشيخ .. والله لأبخرك حتى يذهب عنك الشيطان.

لم يلتفت عبدالستار ولم يع كلام زوجته .. يظل متأملا فى جهازه السحرى ويقول :

ـ غول آخر آت من الشمال ينفث من فمه السنة اللهب كمنجل يقصف الأحياء كما تتقصف الأفرع الخاوية ، وتصير الى خراب ودماء فى دماء .

ونجرى .. نلهث .. نصرخ .. سنغرق .. سنغرق .. هذه المرة فى بحر من دماء .. نظماً .. الغول يلحقنا ممسكا بالجرة ، يمدها لنا :

ـ خذوا ، أرووا ظمأكم .. الجرة .. مملوءة بالدم .

نجوع الغول يتبعنا :

ـ خذوا جثة أخيكم سدوا جوعكم .

ونهرع جنوبا ونقفز شمالا ، ويقترب الغولان .. يتحولان الى فكين لغول واحد .. ونحن داخل الفكين .. نتعثر فى خطواتنا .. لا نعرف وجهه آمنه .. اصيح عليكم :

ـ أسرعوا اليّ .. يجب أن نتكاتف .. نصمد فى وجه الغول ..

أنادى .. وأنادى .. يبح صوتى ولا يلبى أحد ..

غطى الرجل وجهه بكفيه وأنخرط فى بكاء حارق ، ومعه بكت زوجته وابنته حتى سمعاه يردد :

ـ ليتنى أموت وأريحكم منى .. ليتنى أموت قبل أن أفقد صوابى وأعذبكم معى .

وترد الزوجة الطيبة من خلال أنتحابها ..

ـ ومن لنا غيرك يا رجل .. بدونك يأكلنا الغول الملعون الذى تتحدث عنه .. أرحم نفسك وأرحمنا معك .

نقر "محمد" الباب نقرا خفيفا .. تقدم نحو والده فى تؤدة منكسا رأسه .تحسس جبهة والده فى صمت .. تحسس شيبة شعره..إنحنى يقبل خديه .. قفزت دمعة من عينيه :

ـ آسف يا أبى .. أرجوك سامحنى .. لم أقصد أبدا أن أؤلمك بكلامى.. لقد شعرت بفداحة ذنبى .

أحنى الشاب رأسه يقبل يدى والده متوسلا :

- أرجوك ياأبى لا تبخل على برضاك .. لا تغضب منى . مسح الأب رأس أبنه فى حنو وقال :
- لست غاضبا منك يابنى .. لقد لفت نظرى الى حقيقة قاسية كنت أحاول تجاهلها .. حقيقة الوقت الذى تغير ، وتغيرت معه الطبائع والنفوس .. بدأت أفهم .. وكنت أريد الا أفهم .. بت أرجو الموت العاجل .. لكنه عزيز .. عزيز .
أطرق الجميع ينصتون ، فقد تناهى الى اسماعهم صوت آذان الفجر .. فأخذوا يرددون مع المؤذن .. يكبرون .. يسبحون يحوقلون يشهدون أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله .. جفت دموعهم .. توارت الأحزان فى صدورهم .
تقدمت الزوجة تعين زوجها على الوقوف ، فهب الشاب يحتضن والده ويسنده .. بينما وقفت هدى بعيدة تبتسم وتغمر والدها بنظرات العطف والحب .
قبل أن يصل الأب وابنه الى باب الغرفة .. تكلمت الزوجة فى تردد وحذر
- أريد أن أقول شيئا يا حاج ، فلا تسخر منى .
- كيف أسخر منك ياست الكل .. أنت ست العاقلين .. كلامك كله خير بإذن الله .
- أود لو أعمل لك زارا ياأبا محمد .. سيفيق جسمك ويبعد عنك الشيطان .. ويعيد اليك نشاطك .. صدقنى ياحاج ولا تقل دقه قديمة .. القديم هو الخير والبركة .
ربت الرجل على كتفها فى مودة ولم يعلق .. أما هدى فأسرعت تقول :
- عندى اقتراح آخر .. ليتك تذهب معى الى طبيب نفسى.
استدار الأب الى ابنته وأشار اليها بأن تقترب ، ضمها برفق وقال:
- وماذا يفعل الطبيب النفسى .. علتى أعرفها ، وقد تكلمت

معكم وأنتهى الأمر .. الناس ياأبنتى تذهب للطبيب النفسى لكى يسمعهم .. الناس فى حاجة الى صديق مخلص ولما أصبح عزيز المنال أستبدلوه بالطبيب النفسى ..
لا تقلقى من ناحيتى يا هدى .. ما هى الا أضغاث احلام وأنتهت .. هيا بنا يا محمد نلحق بالصلاة..

* * *

لم تنته الهواجس كما أدعى " عبدالستار" .. ظلت عالقة بذهنه تؤرقه ، وصداها يرن فى رأسه يصدعه ، وومضاتها تبرق فى مخيلته وتنطفىء .
أما هدى فلم تسلم بأن كل شىء قد أنتهى بالفعل كما أخبرها والدها ، فعيناها الفاحصتان المتتبعتان لتصرفات والدها تؤكدان لها ضرورة عرضه على الطبيب .. ولكنها تبحث عن وسيلة والأب غير مقتنع بهذه الفكرة على الاطلاق .. وتخشى هدى من ان يأتى الالحاح على والدها بنتيجة عكسية ..
وهداها تفكيرها الى أن تدعو له الطبيب الى البيت . امتثل الأب لرغبة أبنته وتوسلات زوجته واستلقى بين يدى الطبيب مستسلما مستجيبا لأوامره .. لحظات وعقدت لمسات الايدى ونظرات العيون وابر الطبيب المهدئة مودة بين الرجلين حطم صمتها الطبيب بقوله :
ـ ألديك أبناء غير هدى .
ـ عندى محمد .. شاب لطيف ومهذب .. متخرج فى كلية الهندسة منذ عام .
ـ وأين المشكلة .. الشاب لطيف ومهذب ومتخرج منذ عام .. والفتاة لطيفة ومهذبة وسوف تتخرج هذا العام .
هل تكأ الطبيب الجرح .. شرد الرجل فيما تراكم فوق صدره من احمال ، وراح يلقى بها :

- قل بدأت المشكلة .. بدأ التفكير فى المستقبل وفى المعيشة . بدأت المقارنة بين الدراسات النظرية المثالية وبين الحياة الواقعية المؤلمة .. فلذات أكبادنا تقتل بأيدينا ثم نبكى حسرة على مستقبلنا نستحق ما نحن فيه من نقمة .. نستحق أن يلتهمنا الغول ..صابر افندى معذور ..ما ذنبة ابنة الاستاذ حسين .. من قدم السم للصبى شعبان .. هل قتل الابن أمه . هل قتلت الأم أبنها .. من قتلهما معا .

المواجهة غير متكافئة .. قالها محمد .. الريح عليئة بالحصى والصدر عار يفضل التقهقر كنوع من أنواع المقاومة .. ولكن التقهقر الى أين .. دمار فى الشمال .. وخراب فى الجنوب .. لابد من تدخل الاله .. لابد من أن يد يده ويقبض الارواح كل الارواح الشريرة قبل أن يزيد شرها .. الطاهرة قبل أن يلوثها الشر .. ولكن متى .. ؟ أنى انتظر .

لم يغادر الطبيب بيت " الحاج عبدالستار " بعد أن نام بفعل أدويته . جلس مع اسرته يستفسر عن معان كثيرة سردها الرجل وتحتاج إلى أيضاح

- ماذا يقصد بالغول ؟ من هو صابر افندى ؟ وما قصة الريح والصدر العارى .

استرسلت الاسرة فى سرد قصة الرجل .. ما يؤلمه وما يسعده ، وكلما سطع ضوء فوق شخصية الحاج عبد الستار كلما زادت الشخصية غموضا امام الطبيب فتزداد حيرته .

- ما العمل يا دكتور .. أخشى أن يصاب أبى بالجنون .

نطقت هدى عبارتها السابقة على استحياء فقد آلمها أن تنطق بلفظ الجنون مقترن بوالدها .. اما الطبيب فقد اعاد كلمتها بالضغط على حروفها .

- الجنون .. يبدو أنه انذار لنا جميعا . اذا استمر الحال على ما

هو عليه .
ـ ماذا تقول يا «دكتور» ؟
انتبه الطبيب وكان قد استغرق فى تأملاته :
ـ الاكتئاب النفسى ظاهرة مرضية عصرية بعد سن الخمسين وقد مرت بالوالد ثلاث مراحل مرضية اولها حيث كان يؤمن بأنه على صواب مطلق والخطأ فى الأخرين من حوله ، وكانت ثقته فى نفسه فى تلك الفترة هى مصدر قوته..
ثم بدأ يتخبط ويتساءل .. أينا على صواب ، وكان فى هذه الفترة يملك بعض القدرة على المقاومة .
هو الآن مقتنع بأن رجوع الحال لما كان عليه من المحال وكان كلام أبنه معه بمثابة " القشة التى قصمت ظهر البعير " .
ـ ولكن يا دكتور .. هذا الواقع نشاهده جميعا ، لماذا لم نكتئب مثله ..
ـ ردود الفعل تختلف من انسان لآخر فإذا عطس مريض بالانفلونزا مثلا وفرق ميكروبه بالتساوى على الذين من حوله فهناك من سيصاب بالمرض وهناك من لديه المناعة أو القدرة على المقاومة .. والدك مرهف الحس بصورة مبالغ فيها .. فقد قدرته على المقاومة مبكرا ..
ـ هل هناك أمل فى شفائه .. لابد أن يكون هناك أمل .
ـ بالطبع الأمل لا يزال موجودا .. الانتظام على تناول الدواء .. البعد عن أى مؤثرات خارجية تسبب له ألما .. والاهم أن تكونى وشقيقك فى أفضل صورة يود أن يراكما عليها انتما مقياس العالم الخارجى بالنسبة له .. انتما الدليل على استمرار الخير ..

* * *

جلس الثلاثة .. الأم والابنان يتباحثون فيما قاله الطبيب .. لامت

هدى أخاها .. اطرق مصغيا :
ـ اذا اردت أن " تفضفض " فأنا موجودة .. أجادلك الى ما شاء الله .. على الا تقترب من أبى وتتفوه امامه بكلماتك الطائشة :
هز الأخ رأسه طاعة :
– لك ما تريدين .. ولكن هناك شيء مهم حتى نطمئن تماما على سلامة والدنا .
صاحت الأم :
ـ ما هو ؟
ـ عمى الحاج مصطفى .. لابد أن يكف هو الآخر عن نقل أخبار الجيران الى والدنا .. هذه مهمتى .. سأخبره بخطورة اقاصيصه الملعونة على صحة أبى ..بالطبع سينصاع .. لا تقل محبته وخوفه على صديق عمره عن محبتنا وخوفنا عليه .
فكرت هدى قليلا وهى تغدو وتروح وقالت :
ـ تبقى مشكلة أهم .. الناس الذين يركبون معه ويثرثر معهم .
تدخلت الأم بقولها :
ـ لن تقدرا عليه لتبقياه فى البيت .. فور أن تتحسن صحته سيعود الى عمله .. ولن تمنعاه من التحدث مع الناس .
تقدم محمد من أمه قائلا :
ـ لاخوف من هؤلاء .. هم عابروا سبيل .. الخوف من زملائه السائقين الذين يقابلهم فى المقهى .. فلطيبته الزائدة يتخذونه مادة لتندرهم ..
ـ وما العمل يا بنى .. ربنا يفتح عليك :
قالتها الأم بجزع شديد وعلقت ناظريها على شفتى أبنها آملة أن تنطقا بما يطمئنها على زوجها الحبيب .
اطرق الأبن قليلا ثم تحركت شفتاه :
ـ وجدتُها .. أنا أعرف اوقات جلوسه فى مقهى «حندس» سأكون

فى انتظاره ونعود معا .. ماذا يشغلنى ..؟
اطمئن الجميع والتقت عيونهم فشاهد كل منهم الأمل يبرق فى عين الآخر .
مضت أيام قلائل ، وانقلب تدبيرهم رأسا على عقب فقد حدث فت فى عضد الرجل فلم يجد معه حرصه ولم تثمر ادويتهم .. ولم يكن فى حسابهم

تماثل الحاج عبدالستار للشفاء .. جلس فوق فراشه يداعب أهل بيته ويطمئنهم عليه ..

- ياه يا حاج .. أكل هذا نوم .. حمدا لله على سلامتك .

- الله يسلمك يا حاجة يا أصيلة .. كأننى سمعت صراخا وعويلا.. لماذا تغلقون النافذة .؟

- لا تشغل بالك يا حاج .. صحتك أهم ..

- ناولينى كوب ماء .. اذا سمحتى .

- تفضل ..

- بسم الله الرحمن الرحيم

رفع الرجل الكوب الى فمه .. وازدرد أول جرعة .. شق الفضاء صوت ناح قوى .. توقف الماء فى حلقه .. القى بالكوب بعيدا.. لحقه صوت ثان وثالث .. ارتعدت فرائصه .. صاح بفزع .

- ماذا حدث .. ؟

- علاء

أجابت الزوجة بفزع أشد خوفا على زوجها الذى لم يغادر فراش المرض بعد .. نهض الرجل يتعثر فى خطواته .. اطل من النافذة .. الرجال يعدون سرادقا كبيرا .. أهل الحارة يروحون ويجيئون فى حركة دائبة ووجوم مريع ..

لم يدر عبدالستار ولم تدر زوجته الا وهو بين الرجال يسألهم بجزع المكلوم :

- ماذا حدث لعلاء ؟ - وكيف ..؟ خبرونى !

- أنت مريض يا حاج ، ولم نشأ أن نزعجك .. اقعد .. اقعد واستعذ بالله من الشيطان الرجيم ..

- لن اقعد .. ولن اهدأ حتى أعرف .. ماذا حدث .. ؟

- كان يصلى بمسجد الحسين .. دهمته سيارة مسرعة وهو عائد .. انهار الرجل .. انهد فوق كرسيه .. تتدهور حالته مع كلمات المعزين التى تدق فى سمعه كالمطارق .

- زينة شباب الحى .

- كان محبوبا لأدبه وذوقه .

- كان ينهج نهج الحاج عبدالستار فى اصلاح ذات البين .

- كان ينوى فتح عيادة فى خدمة أهل حارته وذويه .

ويشرد ذهن الرجل ولسان حاله يقول :

- لكنه مات .. دون أن يطلب الموت .. وكله أمل فى الدنيا غادرها ..

أسند الرجل رأسه بيديه وانسابت دموعه ..

- كنت تحبه كثيرا يا حاج .. كلنا نعرف ذلك .

- ليتنى كنت مكانه ..

- استغفر الله يا رجل .. أنت مؤمن ولا يجدر بك هذا القول .

. مال الحاج مصطفى على أذن صديقه :

- تماسك يا حاج امام أهل الفتى .. هل جئت لتواسيهم ام لتشعل نارهم .

- بل أنا من يحتاج لمن يواسيه .

قالها وغطى وجهه بيديه وتوالى نحيبه ..

- الحاج عبدالستار يبكى الفتى أكثر من أهله .

- هذا هو الحاج كما نعرفه .

- أنسيت انه كان يساعده على اتمام دراسته .

يميل أحدهم على الحاج مواسيا .

- تجلد يا حاج .. هيا بنا نجلس بين الرجال نستمع الى قول الخطيب حتى يتصبر قلبك .

- إنا لله وإنا اليه راجعون .

قام معهم .. ولايزال يردد الآية السابقة حتى صمت مع الجميع تأهبا للاستماع .
والخطيب يتكلم .. والحاج يستمع تارة ، ويهيم مع هواجسه تارة اخرى .. تسللت جملة من فم الخطيب الى اذن "عبدالستار" ومنها تسربت الى كيانه كله .. فهى تحمل أمنية غالية طالما تمناها :
ـ ابنكم فى زمرة الشهداء والصديقين ..لقد كان عائدا من الصلاة
ـ وكذلك من يخرج فى سبيل الله أو فى سبيل الرزق ويموت فهو فى الجنة بأذن الله .
والجنة هى نقطة ضعف "عبدالستار" الذى رفع يديه للسماء فور سماعها وخرج صوته جياشا عميقا :
ـ يارب ..
ـ هكذا يكون الايمان .
قالها احدهم تعليقا على نداء الرجل لربه مع اختلاف المغزى فى ضمير كل منهما .
دوى كلام الخطيب درى النحل فى رأس عبدالستار وتفرع فى عقله حتى صار له الف ذراع .. التفت كلها حول عنق الرجل المهدود .
تحول كلام الخطيب الى اخطبوط لن يترك فريسته الا جثة هامدة ففى منامه وفى يقظته يردد :
ـ علاء فى الجنة .. وانا هنا أتجرع مرارة الايام .. علاء شهيد يرفل فى النعيم . وأنا فى الدنيا اقلب شفتى امام المتناقضات ولا حول لى ولا طول .. اعطنى حظك يا علاء لماذا لم أمت شهيدا مثلك .. والحوادث قاب قوسين أو ادنى بالنسبة لى .
تذكر الرجل انه يروح ويغدو بسيارته على الطريق السريع حتى ألفت عيناه رؤية الحوادث الجسام .
كان يراها فيما مضى نقمة من الله وتهور من السائقين و اليوم

يتساءل :
- أهى للموعودين .. لمن يختارهم الله فى رحاب جنته العظيمة .. وركبه الهم .. واستمر فى غدوه ورواحه يواصل حديث نفسه ..وهو حديث واحد لا يتغير .
- يارب .. أنا فى أشد الحاجة الى فسيح جناتك .. ما تهجدت ليلا ، وما استقبلت فجرا بالدعاء الا تقربا اليك فأفوز بجنتك .
- يارب .. أنا لا انهج نهج الصوفية فأردد أننى لا أعبدك خوفا من نارك وطمعا فى جنتك .. لا بل أعبدك طمعا فى جنتك التى وعدتها للمتقين ، وأعبدك خوفا من نارك التى ترتعد فرائصى لذكرها والتى وقودها الناس والحجارة .. ومن يقدر على اخفاء سرائره عنك ..
- يارب .. تعرف كم أنا مخلص فى عبادتك وطاعتك لانهما طريقى الى مرضاتك فأنعم بجنتك الخالدة وبرؤية وجهك الكريم ..
- يارب أن أشد ما يعذبنى أن أراك على غير ما أحب والنفوس تتغير وتتساقط كأوراق الخريف اليابسة .
ففى كل يوم أخسر صديقا ، وافجع فى إنسان حتى صرت أشك فى نفسى والنفس أمارة بالسوء .. فرجائى أن تعجل بشهادتى التى هى غاية مرادى .
ومع حديث النفس اليومى لعبدالستار اضحى علاء مصدر غبطة الرجل وحسده ..وازداد زهدا فى الدنيا.. واكثر من مناجاته لربه :
- يارب .. ما عدت اصلح للدنيا .. صرت مصدر تعاسة لأهلى واحبابى .. المح الدموع فى عيونهم ولا اقدر على تجفيفها .. أننى أشقيهم بشرودى المستمر ، فلم أعد افكر الا فى ملاقاتك وشم ريح جنتك .
حار الناس فى امر عبدالستار فقد اذهلهم فى الماضى بكرمه الوفير وهو يذهلهم اليوم بصمته المفرط .. وبدأوا يتهامسون فيما بينهم :

ـ أكل هذا .. حزنا على علاء .
ويلتفون حوله يواسونه :
أمر الله لابد من نفاذه .. هم السابقون ونحن اللاحقون .
كمن يضع الملح على الجرح .. كلماتهم تزكى نار نفسه فيتمتم :
ـ ومادمنا لاحقين فمتى .. ؟
فى بيته تقسم الزوجة أنه لا علاج له سوي الزار .. فهو يفزع فى نومه واخشى أخوانه الذين تحت الارض ..فهم يحبون الرجال الطيبين فيؤاخونهم .
اما الأبنة فلها رأى آخر :
ـ الطبيب النفسى .. يجب أن يزوره مرة اخرى .
ويرد الأخ بنفاد صبر ..
ترددين ذلك ليلا ونهارا ولا تحركين ساكنا ..لماذا لا تستدعينه ؟
تجيب فى لوعة بالغة :
ـ لاننى أخشى من سماع ما يؤلمنى .. أخشى أن يقول لى أبوك قد..... لا تُكمل .. تغيب فى نوبة من البكاء تقول فى خلالها:
ـ ماذا سأقول للطبيب .. أأقول له علاء .. شاب توفى ويردد اسمه فى كل حين .. أهذا كلام يعقل ؟ يتلقف أخوها طرف الكلام :
ـ رجوته اكثر من مرة أن يستريح فى البيت من عناء القيادة .والزحام فلم يطع .. عرضت عليه أن اصحبه فى غدوه ورواحه علي أن اتولى امر القيادة عنه .. رفض وقال :
ـ فى القيادة بغيتى ..
ولا تقل حيرة جيرانه واصدقائه عن حيرة اولاده ، فقد راح كل منهم يجتهد ، ويعمل ذهنه فى تفسير الحال التى يرى عليها الرجل .. فهناك من يقول :

ـ انها حالة من الهيام فى الذات الالهية لشدة ورعه وتقواه .. ومن يقول :

ـ أنه مس من الجن فقد كبر الرجل وخرف .

وتضاربت الاقوال .. وكلما شعر الرجل بهمس الناس ولمزهم .. زاد همه وكدره .. وكلما اتسعت العيون من حوله وامتلأت دهشة .. رغب فى قرب منيته ..يتجه الى الله يرجوه أن يعجل به .

- ٧ -

صباح ليلة مقمرة استيقظ " الحاج عبدالستار " سعيدا متفائلا .. مما اشاع البهجة فى نفس زوجته واولاده فأقبلوا عليه وهم يتساءلون عن سر سعادته المفاجئة ، .. كاد يتكلم .. آثر الصمت .. لعل فى هذه الرؤيا يكمن مراده ..

وهل لديه أمل أكبر من أن يرى فى منامه .. علاء .. وأن يراه جميل الصورة مضيء الوجه ، يرفل فى النعيم .. يراه مقبلا نحوه هاشا باشا باسطا ذراعيه يقول بابتسامة حلوة :

- هيا .. تعال .. اننى فى انتظارك ..

- أنت فى انتظارى يا علاء . يا بشراى .. ولكن متى أننى لمشوق .

تعاقبت الأيام وصاحبنا يستقبل يومه بنشاط وانشراح كأنه آخر ايامه .. يسلم على ذويه سلام مودع .. يتأمل الحى بما فيه ومن فيه ..ويعود فى نهاية يومه حزينا مهموما لأن أمنيته لم تتحقق .. أو لأنه تفادى اليوم حادثا كبيرا كاد يحقق غرضه .

كلما حكى عبدالستار حكاياته هذه بين اولاده أو جيرانه سمع ما لا يرضيه .

- حمدا لله على نجاتك .. الله هو الحافظ .. أبعد عنك الشر . [يا له من تناقض .. كيف يصفون الحوادث بالشر وهى التى تنقل اصحابها الى جنة النعيم .. كيف يمقتونها وهى الشهادة والفوز .)

والأمل يتجدد بزيارات علاء المتكررة .. وتجدد دعوته المغرية .

إثر ليلة حالكة بلا قمر قام عبدالستار من نومه مهموما .. فقد زاره علاء وهدده بالأنقطاع عن زيارته مادام قد تباطأ عليه .. تملكته الهواجس فعلاء مختلف الصورة هذه المرة . رآه ليلة البارحة حزينا .. اسود الوجه ..

- ماذا بك يا علاء ؟

- أننى حزين .. لقد تأخرت على كثيرا .

- وما العمل يا بنى .. ربك لم يأذن بعد ؟

- فكر .

ـ كل يوم انجو من حادث .. وكأنني أولد من جديد .
ـ فكر
ـ فيم افكر .. ؟
مادام الحادث لم يأت بالقضاء والقدر فليأت .. بالتدبير .
ـ ماذا تقول .. ؟ كيف .. ؟
ـ قلت لك مادام الموت لم يأت اليك طائعا .. فلتذهب اليه مختارا..
الامر كله بيدك
ـ كيف ..؟
ـ فى عجلة قيادتك .. انحرافها بين اصابعك .
صرخة الرجل الملتاعة اوقفت الشبح قبل أن يختفى .
ـ انتظر يا علاء .. أنك تقول كلاما خطيرا .. صعب .. صعب ما تقول .
ـ ليس صعبا .. لحظات فى حضن النيل : تعب من عذب مائه حتى تمتلىء حويصلاتك فتعوقك عن التنفس .
ـ ليس فى استطاعتى .. صعب .. صعب .
ـ عناق مع شجرة فارهة .. ضخمة .. تلف أذرعها حول نفسها فى تكاتف لصد هجمات السيارات والانتصار عليها .. تنام فى ظلها الوارف وتتنفس نسيمها الرطب الزكى حتى تفيض روحك فى استسلام .
ـ علاء .. ولكن ..
ـ لا وقت للتردد .. هى جزء من الثانية .. تستجمع شجاعتك وتحدد هدفك .. وتغمض عينيك .
ـ قد يموت من حتى من الركاب ..؟
ـ لابأس .. سعداء الحظ اذن .
ظهيرة اليوم قعد "عبدالستار" مع اولاده حول مائدة الغذاء .. كان موجودا بجسده اما ذهنه فقد راح بعيدا .. يسترجع كلمات الشبح .. يقلبها فى رأسه .. رآه اولاده يثبت ناظريه فى صحنه وتنطلق منه ضحكات مكتومة .. ويبدو ان الفكرة راقته فعاد وابتسم .....
تشجعت هدى أمام ابتسامته وسألته :

- فيم تفكر يا أبي ..
- وماذا فيها .. ألست سباقا للخير طوال عمرى.؟
- بلى ياوالدى لم يسبقك أحد الى الخير.
تنبه الرجل أن هناك صوتا من خارج عالمه هو صوت أبنته .. التفت إليها والى كل من زوجته وابنه وقال :
- لا تنشغلوا هذا موضوع آخر . تبودلت النظرات ولم تنطق الشفاه .
فى المساء جلس الرجل القرفصاء فوق اريكته .. يراجع خواطره ويحدث نفسه قائلا :
- لن أنال هذا الخير وحدى .. سبعة-معى .. يختارهم الله .. ونتنقل جميعا من الدار الفانية الى الدار الباقية .. وبينما الناس يكونون هنا متشاغلين بجثثنا البالية ومتخبطين فى تعليلاتهم للحادث تكون نحن فى جنة الخلد ننظر اليهم من عل ونبتسم .. .
يهز الرجل رأسه فى شموخ متخيلا مآله فى الاخرة والملائكة تحف به .. تحمله على أجنحتها .. تحييه هو وزملاءه فى الحادث :
- مرحى بالشهداء .. "أدخلوها بسلام آمنين" .. لا تتسارعوا هكذا .. قفوا صفا واحدا بجوار بعضكم البعض كصف الصلاة .. لا وراء بعض كصف الجمعية التعاونية .. كل كتف يلامس كتف الآخر حتى تدخلوا الجنة دفعة واحدة فلا يشعر أحدكم بامتيازه عن غيره .. هنا المساواة.. لا محسوبية.. لا رشوة.. لا معاناة ..
أنشرح قلب الرجل للفكرة .. وجد الحل أخيرا .. شكرا لك ياعلاء.. لم يتبق سوى الأنتظار بضعة أيام يرتب فيها مسئولياته تجاه أولاده وجيرانه .
- أنت على خير حال هذه الأيام ياحاج عبدالستار .. نرجو أن يكون الله قد أزاح عنك الغمة التى ألمت بك .
- أشكر لكم ياجماعة أهتمامكم بحالى .. فيكم البركة .. نحن

أخوة والذى يغيب منا يجب أن يملأ فراغه الآخرون .. أليس كذلك
ـ هو ذاك ياحاج .. فنحن مطمئنون مادمت بخير بيننا .
ـ ولكن الأنسان لا يضمن عمره .. والطريق كله مخاطر .
ـ ربك هو الحافظ ياحاج .. ومن لنا غيرك .
ـ الموت حق ياناس .. أيهرب أحد من الحق ؟
ـ أمد الله فى عمرك ياحاج .. ومتعك بالصحة .
ـ لا تراوغونى أرجوكم .. أريد وعدا وعهدا .
قال عبدالستار كلامه بعد أن نفد صبره ، فأستشعر الرجال خطرا .. تبادلوا النظرات وتهامسوا :
ـ ماذا يقصد الرجل بكلامه ..أى شىء يريد أن نعاهده عليه ؟
ـ أنت صديقه ياحاج مصطفى وموضع سره .. ماذا يقصد الرجل بكلامه ؟
ـ أنا أكثر دهشة منكم لقد أخذ العهد منى قبلكم .. ولا أعرف سره هذه المرة .
وقبل أن يضرب الرجال أخماسا فى أسداس يواصل الرجل كلامه :
ـ من منكم يتطوع برعاية أولادى اذا قدر الله وأصابنى ....
ـ إنه رجل طيب .. والله كاشف عنه الحجاب .
ـ لابد أنه يشعر بدنو أجله .. واجبنا أن نطمئنه ونثلج صدره .
تسابق الرجال يعرضون خدماتهم .. واستعدادهم التام للقيام بهذه المهمة .. ويقسمون بأنهم سيكونون فوق الرءوس وفى العيون .. اطمأن الرجل(وشعر كمن ألقى بأحماله) فلم يعد أمامه من الغد سوى أن يبدأ فى تنفيذ خطته .. دهمه هذا الخاطر فما عاد يسمع ولا يرى ما حوله .. تبدلت سحنته فضرب الرجال كفا بكف وأتجه كل منهم وجهته ..
مرت أيام أخر ، ولم ينفذ عبدالستار ما أنطوى عليه ضميره ، ولم يمنعه سوى خاطر جديد أقض عليه مضجعه وبدل فرحته ،

فعاوده الحزن مع سؤال ملح :
- إن ما سأفعله يعد انتحارا .. أغثنى يا علاء .. أغثنى ..
وجاء علاء مغيثا ، جاءه بوجهه الشاحب ، وصوته الصادر من أعماق الجب :
- ماذا يارجل .. تأخرت كثيرا .. مللت أنتظارك ..
- ماذا فى يدى ياصديقى .. مانفكر فيه سيجعلنى أتردى فى الجحيم سيكون أنتحارا .. أريد شهادة .. لا مفر من الأنتظار..
- سننتظر طويلا ..
- وهل هناك حل آخر ..
- هناك حل لكل معضلة ..
- أتحفنى به .. أرجوك .
- عليك أن تعمل ذهنك ..
أختفى الشبح وترك عبدالستار فى حيرته .. ولكنه عاد وعاد .. والحديث لا ينقطع بينهما .. كلما اختلى الرجل بنفسه جاءه طيفه الباهت يحثه على أن يعمل ذهنه .. والرجل يتوسل اليه أن يدله.
- كيف يكون الخلاص ؟
- دبر الحادث ثم حاول الهرب لحظة وقوعه .
عبارة رمى بها الشبح لتغرق الرجل فى حيرة أشد.
- لم أفهم .. ؟ ماذا تقصد ؟
- دبر الحادث ثم حاول الهرب لحظة وقوعه .
- كيف .. ؟ ولماذا ..؟ وما الفائدة .. ؟
- وجه سيارتك الى التهلكة . ثم حاول الهرب ، فاذا نجوت "فالخير فى غيرها" أما اذا فشلت فى الهرب ، فستموت شهيدا لأنك لم تنو الأنتحار . أفهمت ؟
لمعت عينا الرجل وصاح :
- بوركت ياعلاء .. من أين تأتى بهذه الأفكار الصافية .. ؟

عرفت الابتسامة طريقها الى شفتى الرجل .
رست سفينته أخيرا .. سيحاول الهرب كما نصحه علاء وليترك للقدر تحديد نهايته .
لم تخامر نفس عبدالستار وهو يحادث نفسه بالحديث السابق ، ويعيش فى سعادة وهبها له علاء زميله فى الجنة الموعودة .. انه سيكون قاتلا لمن معه من الركاب .
وكيف يكون قاتلا ولم تتوافر عنده نية القتل .. أليست للنية دور فى تقييم الأمور ومحاسبة الإنسان .. "انما الأعمال بالنيات" كيف يكون قاتلا ولم تجمعه بهم عداوة ، ولم يتهم أنتقاما أو شماتة أو للحصول على مكسب من ورائهم .. هى ميتة خالصة لوجه الله ..هى ميتة للخلاص من الدنيا وليس طمعا فى مفاتنها.
ـ والشرطة ؟ خاطر جديد برق فى رأسه فجأة .. أرتعدت فرائصه من الوهلة الأولى .. عاد وتماسك وهو يتخيل نفسه واقفا بين أيدى رجالها يدافع عن نفسه :
ـ على أى أساس تحاكموننى – هل توافر لديكم سبق الإصرار والترصد ؟ هل أعرفهم من قبل ؟ هل سأستفيد من موتهم ؟
ثم يصمت فى داخله صوت الدفاع .. ويعلو صوت الزاهد فى الحياة .. فيعود ويحادث نفسه :
ـ لن أدافع عن نفسى .. سألزم الصمت حتى يعدمونى فأكون بذلك شهيدا . لأننى سأعدم بلا جريمة .. بريئا .. وعندها سأجد لى متسعا فى الجنة ، وسأجد زملائى ينتظروننى مرحبين .. سيعرفون الحقيقة ولا ريب .. ففى العالم الآخر تتكشف السرائر، فمرحى بالشرطة .. ومرحى بالتحقيق . وبالإعدام .. وداعا يا أعز الناس.
والى اللقاء فى الجنة..

استعد الرجل تماما لمواجهة اللحظة .. تهيأ بتفاؤله ، تطهر فى بيته ، وودع أهله وجيرانه .

استبشر باليوم ، شمسه ساطعة .. هواء منعش يتجاوز الصدر وينفذ ليرطب القلب والرئتين .. أنصت لصوت العصفور ، وأنتشى لهديل الحمام .. تأمل فى الوردة وتغزل فى الخضرة ، فأنتعشت روحه المتعبة وأكد أطمئنانه حلم الأمس .. فقد رأى .. علاء مبتسما هاشا باسطا له ذراعيه ..

ركب عبدالستار سيارته ودعا لها بالنجاح فى مهمتها الروحانية الهادفة .. وقف بموقف السيارات ينتظر دوره .. يدور بعينيه تلهفا لمعرفة رفقائه فى نيل المنى . صدره مملوء بهواء نقى يستشعره ، فيحثه ببدنه ، هواء بعيد عن هواء المكان الذى يقف فيه ، والذى يمتزج أكسجينه بعادم السيارات ، وقودها ، وشحمها وزيتها وأيضا دخانها .

كأنه ريح من الجنة داعب أنفه ليحثه على الإسراع .. وقف يحيى بكلتا يديه الرائح والغادى من زملائه الذين يقابلهم عادة فى الموقف ثم راح ينادى على سيارته ..

- إسكندرية .. إسكندرية .

سأله زميل :

- ولكنك لم تذهب الى الاسكندرية قط .. وتصل الى طنطا بالكاد .. ؟

رد عليه بابتسامة عريضة :

- اليوم مشوارى طويل .. طويل جدا .

وعاد ينادى ..

- تفضل يا أستاذ .. اسكندرية يا هانم .

نذكر شيئا .. توقف عن النداء .
(لن أنادى على أحد .. من يختاره الله للشهادة سيسوقه الى .. ها هى ذى السيارة قد امتلأت بالزبائن .. سبعة طائعين مختارين من قبل ربى ..
كل شيء ميسر بمشيئته سبحانه وتعالى ، وما أنا الا عبد من عباده يستخدمنى لتنفيذ مشيئته ..)
فرك الرجل يديه منتشيا :
- هيا توكلنا على الله ..
توجه الى سيارته .. استقبل عجلة قيادتها .. تسمرت عيناه على المرآة المعلقة امامه..دار بعينيه فتتابعت وجوه سبع.. ركابه سعداء الحظ واصحابه فى الجنة ، وراح يحفر ملامحهم فى ذاكرته ..
- رجل مسن يقاربنى فى العمر .. أولى به أن يضمن نهايته فى وقت سقطت فيه كل الضمانات .. شعره خليط من الابيض والاسود .. وجهه متماسك .. تجاعيده غير غائرة .. لايزال مصرا على تمام وجاهته .. يرتدى بزة أنيقة فاخرة .. يزين خنصر يده اليمنى خاتم ثمين .. اما عصاه التى يسند ذقنه عليها فهى ايضا منتقاه ..و.. وذهنه شارد ..
- تجلس الى جواره سيدة متوسطة العمر .. متوسطة الجمال .. بالتأكيد لا تجمعهما صلة .. فالهدوء الذى عليه الرجل ، لا يتفق مع الاضطراب والعصبية التى عليها المرأة ..تفرك يديها فى قلق. نظراتها حيرى بين النافذتين .. فستانك البسيط ، وشعرك القصير دليلا آمرأة مكافحة .
احتل هذان المقعد الاخير .. اما المقعد الاوسط وهو يتسع لثلاث .. تبدأه سيدة عجوز وجهها يحمل تجاعيد زمن مضاعف واحزانه .. فمها هجرته جميع اسنانه .. لم تجد النحافة لها مستقرا وملاذا سوى بدنها .. متشحة بالسواد جسدا ورأسا .. تلملم جلبابها من

آن لأخر فى قرف باد ..
تحرك الشاب الجالس عن شمالها بعد أن لكزته فى ذراعه .. وشدت ثوبها .. ثم تحولت بوجهها الى النافذة أما الشاب ففى العشرين .. عيناه واسعتان دائمتا التحرك كأنهما يبحثان عن ضالة .. كمل شكله الكاريكاتورى ببذته غير المهندمة ، مع رخص ثمنها .. لا أدرى كيف عبأ صدره بكل هذا الهواء الذى أخرجه زفرة واحدة طويلة ، تململت لها الفتاة ثالثتهما فى المقعد . والفتاة فى عمر الشاب تقريبا .. وفى عمر أبنتى هدى .. أسميك عروس الجنة .. فلولا أصباغك المبالغ فيها وثيابك التى لا تستر بقدر ما تكشف لوصفتك بملاك الجنة ..
للفتاة نظرة جريئة .. وتخص الرجال بطول النظر ، لا تكف عن التشدق باللبان ..
يستر الله على عباده ، ويفضحون انفسهم بالنظرات واللفتات .. لابأس الغفران أقرب اليك من حبل الوريد .
تبقى رجلان يحتلان المقعد الاول .. صديقان لدودان .. لايكفان عن الهمس والزغد .. انيقان فى بزتهما وربطة عنقهما .. يمسك كل منهما بحقيبة فاخرة يتخذ منها ستارا وهو يكيل الكلمات والنظرات ..
يبدو على أحدهما انه " دحلاب " يضع فوق عينيه نظارة سوداء تلازمه داخل السيارة ..تنكفىء مع امالة رأسه وهو يصب فى اذن زميله بكلمات يتأفف لها وجه الرجل الأخر .. فتتشنج ملامحه فتلتوى معها شامة كبيرة تقف شامخة بجانب أنفه تعبر عن امتعاضها هى الأخرى .
لا عليكما .. ستزول أسباب الشقاق وتكتنف احاديثكما المودة والاخوة .. كلها دقائق ..
ـ اليس فى سيارتك جهد أكثر من هذا ؟

قالها ذو النظارة السوداء بغضب شديد ، فنفض عبدالستار رأسه ليطرد ما تبقى بها من افكار وقال :
ـ أأنت على عجلة من امرك الى هذا الحد .. ؟
ـ بالتأكيد لا يود أحدهم أن يصل غدا زحفا مع مشيتك .
ـ لا غدا ولا شيء " فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة "
رد الشاب :
ـ ليس فى الدنيا ما نحرص على سلامتنا من أجله .. الافضل أن تسرع بنا ..
(يا الله .. الفرص تطل من تلقاء نفسها .. لابد أن تستغل يا عبدالستار ضجر الرجل ، ويأس الشاب ، وتدير حوارا يشترك فيه الجميع حتى تتعرف على نياتهم بعد أن تعرفت على وجههم ومظهرهم الخارجى .)
انهى عبدالستار حديثه فيما بينه وبين نفسه وتمطى استعدادا للمهمة .. زاد من سرعته قليلا وهو يخاطب الشاب :
ـ كيف لا تحرص على سلامتك يا بنى ، ولا تزال فى مقتبل العمر .. والمستقبل بين يديك ؟
طوح الفتى بيده فى الهواء بلا مبالاة قائلا :
ـ لا تذكرنى بالمستقبل أرجوك .. هو مظلوم على ما يبدو .. ليس للفقير أن يعقد اماله على الدنيا أو يحظى بابتسامة منها .. ذات وجهين .. .
ـ لا تغرك الدنيا يا أخى الصغير .. فما أبتسامتها سوى بالوعة بداخلها العقارب والثعابين .. لا تلهث وراء ابتسامتها ، فتتقطع أنفاسك وتذوب لهاثا ..
وقف الكلام فى حلق ذى الشامة المتعضة إثر لكزة من زميله ذى النظارة السوداء .
تحسس الرجل ذراعه وسدد اليه نظرة حانقة .. بينما راح زميله

يكيل له كلماته الحادة :
ـ بمناسبة وبدون مناسبة تندب حظك .. هل سألك أحد عن رأيك فى الدنيا .. ماذا دهاك .. الا تشعر بما أنت فيه من نعمة .. راتبك خيالى ، ملابسك من اوربا .. تعيش كممثلى السينما .. ولاداعى للتحدث عن سيارتك المرسيدس التى طالما تحسست صورها بالمجلات ولولا أهمالك وعصبيتك ما اضطررنا لمصاحبة هذا السائق الثرثار ..
ـ ولكنى أشعر بأذرع الاخطبوط تلتف حول عنقى ، وتكتم انفاسى .. لم تعد تجدى معى حبوبك المهدئة ـ من فضلك فك عن عنقى هذه الاذرع .. أننى اختنق .. قاطعه بلكزة ثانية وبلهجة أكثر قوة قائلا :
ـ اصمت .. لا داعى للفضائح التى تثيرها فى كل مكان .. أتظن أننى متمسك بك ؟ يمكنك تقديم استقالتك فور عودتنا .
ـ ولماذا بعد ما نعود .. قدمتها لك عدة مرات وتمزقها والأن تعدنى بقبولها فور عودتنا .. لا أدرى سر اصرارك على اقام هذه المهمة أولا ..
ـ اصمت .. اصمت نفد صبرى معك .
سعادة " عبدالستار " بتلك المشادة لا توصف .. تلمع عيناه ، وتتسع ابتسامته وهو يراها تتفاقم .. لكنه اخذ بعبارة الرجل الاخيرة .. اصمت اصمت .. وتساءل :
هل سيتركه يصمت .. لا.. لابد أن يحرضهما على الكلام .. ويوجه الحديث وجهة يرضاها .. لابد أن يلمس فى كلامهم رغبة فى الخلاص من الدنيا ... فيؤمن باصابة فكرته التى سيجنون ثمرتها معه فيحمدون له صنيعه ..
من أين يطرق ؟ عليه بمداومة القرع على باب المناقشة لتنساب حامية تثلج صدره .. ولتكن البداية باستفزاز صاحب النظارة

الغامض .

- لماذا يا أخى تتهمنى بالثرثرة .. ألسنا فى طريق طويل يحتاج الى تسلية ودردشة .. هى فرصة لأن يزيح المسافر عن صدره ما يضايقه فلا أحد هنا يعرف الأخر .. وربما لن تلتقوا مرة اخرى ..

اشتد ضيق الرجل فتململ فى جلسته ورفع نظارته واعاد وضعها وهو يتأفف دون أن يتفوه ففوت على صاحبنا الفرصة التى مهد لها ، لكنه لم ييأس وتابع كلامه مع اكساب صوته لهجة الجد :

- من حقك ان تصمت كما تريد .. وليس من حقك أن تفرض على غيرك الصمت ... لماذا اسكت الرجل .. ؟

ضغط الرجل على اسنانه وكظم انفعاله قائلا :

- من فضلك يا أسطى .. صديقى هذا مريض .. يهذى منذ مدة .. ارجوك لا تثقل عليه حتى لا تسوء حالته ..

ضاعت الفرصة لا محالة .. هز الرجل رأسه اسفا دار بعينيه يتلمس انقاذا قبل ان يطبق صمت القبور على سيارته قبل الاوان. ادار مذياعه .. حاول أن يدندن معه فلم يستطع .. له رغبة ملحة لأن يقف على حقيقة سرائرهم .

تكلم الشاب :

- انت رايق قوى يا أسطى .

- ولماذا لم تكن رائقا انت الأخر .

- افكر فى الكلام الذى قاله الاستاذ لصديقه منذ دقائق .

(يا فرج الله ..)

- وماذا قال لصديقه .. شغلك الى هذا الحد ؟

- قال أن راتبه خيالى .. أود لو أساله ما طبيعة العمل ذى الراتب الخيالى .. ربما يسعدنى الحظ بمزاولته ..[نفد صبر ذو النظارة فاندفع قائلا :

- قف هنا .. أنزلنا من فضلك .. يبدو أنك تنتقى زبائنك على

شاكلتك .. ليس لدينا أعصاب للثرثرة الفارغة ..
هيهات أن يقف عبدالستار ، فهم لا يدرون ما يخبئه لهم القدر من مفاجأة نادرة الحدوث .. وقبل أن يتمكن عبدالستار من الرد عليه سبقه الشاب بقوله :
ـ ها أنت ذا تبخل علىّ بالنصيحة ، وهى لا تكلفك شيئا .. فاذا قلنا بأننا جيل بلا أساتذة .. بلا قدوة .. بلا ناصح يكون معنا الحق.. ازدرد الشاب ريقه وتابع كلامه بحماس أكثر :
ـ كلامك الذى اسال لعابى .. فكنت كمن ينظر لمائدة عامرة بصنوف المشهيات .. بسطها العدو امام اسيره الذى يتضرر جوعا وعطشا حتى يجبره على الاعتراف .
لايزال الشاب ممسكا بدفة الحديث .. مغتنما الفرصة لكى يفضى بمشاعره الجياشة :
وتستنكر سؤالى عن وظيفة براتب خيالى .. تخرجت منذ شهور فى كلية التجارة .. يمكنك أن تحسب على آلتك الحاسبة التى فى حقيبتك هذه .. كم ستعطينى الوظيفة ، وبعد كم من السنين يمكننى أن أتزوج وأكون اسرة .. تفضل افتح حقيبتك وأستخرج آلتك واحسب ..
ـ من قال لك أن بالحقيبة آلة حاسبة ؟!
ـ لا تصلح هذه الا بتلك ..
أشاح الرجل بيده وقد أخذ منه الضجر كل مأخذ ، ولم يجب ..
قطع الفراغ صوت هادىء وقور :
ـ هكذا أنتم ايها الشباب .. متسرعون .. قبل أن يخرج الواحد منكم من البيضة يفكر متى سيصبح ديكا ذا عرف ويؤذن فى الصباح ..متشوقون للسيارة والعمارة قبل أن تضعوا ارجلكم على أولى درجات الكفاح والجد .. لا تؤاخذنى يا بنى ، فقد ذكرتنى بأولادى .. هم فى مثل سنك ، يفكرون بمنطقك .. واذا قلت لهم

تريثوا قالوا :
- نحن فى سباق مع الزمن .
والزمن لا يسابق أحدا .. أنتم فى سباق مع أنفسكم الى الاوهام والزيف ..
أراح الرجل صدره بتنهيدة عميقة وقال :
- رحمك الله يا أم الاولاد .. رحلت وتركتنى وحيدا بين أولادى .. كم أنت أكثر حظا منى .
شيق هذا الحديث .. ينساب فى أذن عبد الستار انسياب نغم حالم ، يسرى فى ليلية مقمرة ، خارجا من غاب فلاح عاشق .. هنأ عبدالستار نفسه بعثوره على ضالته ، فهو كمن لقى سوسنة فى ارض قاحلة وجب عليه أن ينتشلها من بين الرمال والرياح ويزين بها آنية بلورية ناعمة ..
استبشر بكلام الرجل الذى يحسد زوجته التى رحلت قبله ، فلم يتمالك نفسه فرفع صوته بابتهاج قائلا :
- ابشر يا علاء .. هذا أولهم ..
تلفت الناس الى بعضهم البعض .. ولم يعلقوا بينما لكزت العجوز ذراع الشاب قائلة :
- الزم الصمت .. سوف تنجز مهمتنا وتتحسن احوالنا .. الصبر .
- اشك فى هذه النتيجة .. لا أطمئن لنجاح المهمة التى تحرضيننى عليها .. كم كنت تحثيننى على المذاكرة والاجتهاد فى دروسى .. كنت تقولين أن الشهادة الجامعية هى الحل هى التى ترفع مستوى الانسان المادى والاجتماعى .. كنت تقارنين بين شباب العائلة والجيران :
- لو أكمل هذا تعليمه لأصبح وضعه أفضل .. لو أجتهد هذا فى دروسه ما شكا الحاجة .. وفعلت ما كان مطلوبا منى ذاكرت واجتهدت فاذا بى افاجأ بأنه مطلوب منى انجاز مهمة اخرى ..

مهمة البحث عن الثروة حتى أبدأ مشوارى فلن أصبح ذا قيمة إلا بها وليس بما استوعبت من دروس .
أه لو تدرين يا أمى كم أنا أكره نفسى ، وأكره المشوار الذى تقودينني اليه كالأعمى ..ليتك تدرين أن الموت اخف على منه..
ـ اثنان يا علاء ..
ـ يبدو انك مجنون يا رجل .
قالها الرجل الغاضب الغامض .. تنبه عبدالستار فخشى انكشاف أمره .. أعتذر بقوله :
لا تؤاخذنى يا سيدي .. انما أغير مجرى الكلام لكى تضحكوا .
لم يضحك أحد بل سعل الشاب حتى انهكه سعاله .. صبر عبدالستار حتى أسترد الشاب أنفاسه :
ـ اعتقد انك تتعاطى مخدرا ما .. اذا صدق حدسى فهل يمكننى أن أسألك كيف وأنت تشكو الفاقة ؟
ـ شباب طائش .. لا يعرف صالحه .. يحل مشكلته بايقاع نفسه فى مشكلة اكبر .. يتعاطى " السم الهارى " منذ أن بدأ يحسب كم سيأخذ وبعد كم سنة ..
انطلقت الام بكلماتها مشفوعة بزفرة حارة ..
ـ ليس الشباب فقط يا أمى هم الذين يغيبون عقولهم بالمخدرات.
تهدج صوت المرأة الوسط بعبارتها .. تنهدت واكملت :
لدى ابنك الحق اذ ينشد الراحة فى الموت ..
ـ سوف ترتاحين يا سيدتى بعد قليل ..
هذه المرة لم يتفوه عبدالستار بعبارته السابقة .. قالها فى نفسه حرصا على سلامة خطته ..
ربتت العجوز على ظهر المرأة التى اطرقت تمسح دمعة نبت عن عينيها واستردت كمن يخاطب نفسه :
ـ تحملت وحدى مسئوليات أولاده .. أصرف راتبى كله داخل بيته

.. ويضيع راتبه على طاولة القمار ، وثمنا للخمور .. وأخيرا يتطاول على بالسب والضرب .. هذا لا يحتمل .. تحمل مسئوليات بيتك وأولادك.. تركتهما لك.. ربما ينفعك اصدقاؤك .

- تحملى يا بنتى .. المرأة " الستر والغطاء " على زوجها .. أنت التى تتحمل .. ليس للرجال مرارة .

- لا يا خالتى أرجوك .. لا تذكرينى بنصائح أمى وجدتى .. النصائح التى أضاعت كرامتى ونقودى ، وأتلفت أعصابى وشبابى ..لم تعد لى قدرة على التحمل ..

انطلقت المرأة بكلماتها الممزوجة بمرارة حلقها .. فكان لها رنين المطارق فوق الحديد الساخن .. بينما تدخل الرجل العجوز بلهجته الرزينة :

- الحق معك يا سيدتى .. ان اردت ايقافه عند حده . لا تتركى له العنان كنصيحة الهانم .. ان فعلت فلن تفسديه عليك فقط بل علي نفسه ايضا .. يستمرىء الدعة وينسى واجبه .. ثم ..ثم حبس الرجل أنفاسه برهة واستطرد :

- أننى انقل لكم تجربتى .. فقد انزلقت فى هوة (سى السيد) حتى رحلت زوجتى وتركتنى أدور حول نفسى بأولادى .. تائها.

فغرت العجوز فاها وقالت :

- ماذا جرى فى الدنيا .. أمثلك يقول هذا الكلام :

مسح العجوز حبات العرق اللامعة فوق جبينه واجاب :

- التهبت اصابع الندم من كثرة ما عضضت عليها .. فلماذا تستكثرين على قولة صدق بعيدة عن نعرة الرجل الشرقى .. فكم تمنيت اللحاق بها لكثرة ما لقيت من عناء بعدها ..

- لا .. لا .. عددناك من قبل .. هكذا سيتضاعف العدد ويتهموننى فى الآخرة بمخالفة القوانين .

داعب عبدالستار نفسه بالجملة السابقة .. اما المرأة الوسط فقد

انخرطت فى البكاء حتى تأثرت الفتاة .. همت بالكلام فلم يسعفها صوتها الذى تعثر فى دمعتين تدحرجتا فوق خديها .. تشاغلت بتجفيف دموعها وهى تحدج المرأة الباكية بنظرة شغوفة تنبىء عن نفس تجرعت الظلم حتى الثمالة :

يتتبع عبدالستار المشهد من خلال صندوق الدنيا المعلق امامه .. تحير من أمر الفتاة .. فصورتها وهى تبكى فى صمت لاتصلح وجها آخر لصورتها وهى تلوك لبانتها وتوزع نظراتها فى جرأة .. وتساءل فى نفسه :

هل سيطول هذا الصمت .. يحتاج الى سن الدبوس حتى يفرغ مكنونه ..

ـ لم لا تقولين رأيك يا أبنتى فى هذه القضية .. رأى الشابات مهم فى قضية تخصهن ..

هل تؤيدين كلام الخالة بأن الرجال ليس لهم " مرارة " ام كلام العم أصوب إذ يطالب بأن يتحمل الرجل مسئولياته .

تغلبت الفتاة على اشجانها .. قالت ولا يزال أثر الشجن عالقا بصوتها :

ـ ذكرتنى السيدة بوالدتى .. كانت رحمها الله ضعيفة الشخصية ، وكان والدى رحمه الله مسيطرا حتى القسوة .. ملأ البيت صياحا ثمانية عشرة سنة هى عمرى قبل أربعة اعوام وبكت أمى سرا طوال السنوات الثمانية عشرة .. ورحلت .. فقدت برحيلها ملاذى الوحيد .. شهر بعد وفاتها وفقدت بيتى وحريتى .. فقد نزحت عليهما زوجة ابى الثانية واولاده منها ..

كنت فى الصف الثانى الثانوى ، وقت أن اصدرت أمرها بأن اكتفى بهذا القدر من التعليم وأن الزم البيت فى أنتظار العريس.. أعد له نفسى ليجدنى ربة بيت ماهرة .. استنجدت بأبى فلم أجده .. فوجئت بأب آخر غير الذى أعرفه .. غير الذى اذاق أمى

الامرين فأنفجر كبدها قهرا ..
شخصان على النقيض هما أبى .. فى ظل هذه المرأة كم هو هادىء ومطيع ..
استسلمت لقدرى .. تحولت من تلميذة مجدة الى خادمة مضطهدة ودادة بلا اجر .. ثلاث سنوات نتبادل أنا وأبى نظرات الرثاء عن بعد كل منا يشفق على الأخر .. آخر ما نطق به وهو فى فراش الموت .. سامحينى يا أبنتى..
رحل لتطبق على الوحدة .. لأحرم حتى من نظرة الرثاء ..
(لا اله الا الله)
(لا حول ولا قوة الا بالله).
بالطبع لم تفرط زوجة أبى فى خادمتها ، ولكن ما أقسى عقابها.
تطردنى من الشقة وتغلق الباب فى وجهى .. اقعد فوق الدرج حتى تقبل وساطة الجيران واستعطافهم فتصفح عنى .. وتأوينى فى بيتى ..
انكشف غطاء احزانها وطفح ما بداخله .. عزت عليها نفسها .. وأبى زمام دموعها أن ينقاد لها فأسلمت له قيادها وراحت تبكى وتتشنج .. والركاب بين متعاطف وحائر ماذا يصنع ؟ ومتأفف ينعى سوء حظه فصاح فى السائق :
ـ ظن زبائنك انفسهم فى دير فراحو يذرفون الدمع والاعترافات حتى يتخلصوا من ذنوبهم ..
ـ من يسمع شكوى غيره تصغر فى عينه شكواه ..
ـ مسكينة يا أبنتى .. وماذا فعلت معها ..؟
قالت بلهجة ساخرة من نفسها :
ـ .. هربت ...وتزوجت .. صمتت قليلا واسترسلت فى حسرة :
ـ لكنه كان نذلا .. جبانا .. هربت منه هو الآخر .. لم أجرؤ على العودة الى زوجة أبى .. فمضيت .

ـ الى أين ؟
صاح بها العجوز وعبدالستار فى صوت واحد ..
تحرجت الفتاة قليلا ثم شمخت برأسها فى عدم مبالاة ..
ـ مضيت فى الطريق الموعود .. بوعى هذه المرة .. الدفع أولا ..
اطرقت الفتاة ونفثت تنهيدة حارة ارتجت لها أعصاب السيارة من خلال عجلة القيادة فى يد عبدالستار .
ـ والان .. حددت طريقك فى الحياة وسعدت به ؟ فقد سمعتك تذكرين الحقيقة ولم تمتعض لك شفة .
افرغت الفتاة باقى الهواء الفاسد الذى كتمته وعبدالستار يتكلم وقالت وقد اكتسى صوتها بمخزونها من الشقاء :
ـ كيف يخفى الانسان ما سطر فوق جبينه من شقاء ؟ وكيف يشعر بالسعادة من ماتت بداخله مشاعر الانسان ..؟ لا تظن أننى راضية عن مصيرى . .. اليس التراب اكثر سترا لمثلى .
صاح عبدالستار :
ـ اكتمل العدد يا علاء ..

* * *

قرر عبدالستار البدء فى تنفيذ خطته .. فقد لمس بنفسه مبلغ تعاستهم .. كيف سلبت الدنيا ارادتهم وتركتهم يحيون بلا أفئدة.. بلا ضمائر .. بلا مشاعر .. يلوكون عذاباتهم بلا حول ولا قوة ..
عرج عبدالستار بسيارته الى احدى الاستراحات الواقعة على جانبى الطريق ..
ـ لماذا توقفت هنا يا أسطى .؟
ـ اريد فنجانا من القهوة .. وانتم الا تنشدون الراحة قليلا .؟
انبرى الغاضب يقول :
ـ وهل من ورائك راحة .. لا وقت عندنا لهذا التلكوء . حدجه

عبدالستار بنظرة متفحصة قال فى تحد :
ـ السيارة فى حاجة الى حة ..
استدار مخاطبا الجميع بد اقرب الى الامر :
ـ تفضلوا انزلوا جميعا حتى اريح السيارة فى الظل وافتح غطاءها .
نزل الجميع وهم بين غاضب يلعن اليوم وبين ضاحك لا يبالى ..
ـ حظ تعس .
ـ سيارة قليلة الجهد كصاحبها ..
ـ ارم لها ببعض البرسيم .. ربما جائعة ..
ـ هذه سيارة .. ام سفينة الصحراء ..
ـ لا .. سفينة النجاة .. لو تدرى .
قال عبدالستار جملته الاخيرة ، وانتحى جانبا .. ولما اطمأن الى أنه اصبح فى مأمن من العيون اخرج عدته وشرع فى فك صواميل احدى الاطارات الامامية .. لم يكمل الفك حتى نهايته ليبدو الاطار ثابتا فى موضعه لكنه يتخلى عن مكانه بعد دقائق من تحريك السيارة .. فيضمن انقلابها سريعا ونجاح مشروعه ..
نفض عبدالستار يديه من المهمة ، وجلس يحتسى فنجان الشاى سعيدا بما انجزه .. يبتسم فى الهواء وتلمع عيناه وهو يتخيل مصيره المأمول..ترك الكوب من يده ونهض مسرعا استجابة لهاتف دعاه طلب من ركابه أن يتخذوا اماكنهم فى السيارة . فقاموا متثاقلين . يسند قويهم ضعيفهم ..
ما أن استقبل عبدالستار عجلة القيادة حتى تمطى فى كرسيه .. واسترسل فى غنائه ..
ـ " قرفت " الجميع وتفرغت أنت للغناء ..؟
ـ غن مثلى .. الافضل أن نغنى جميعا ـ فنحن سعداء .
ـ اصمت يا رجل هل ستعود مرة اخرى للثرثرة ؟
.. نفد صبرى منك ومن معك .

ـ لا تغضب هكذا يا سيدى .. سأدير لك المذياع ..
تنقل عبدالستار مع مؤشر المذياع من موجة لأخرى وتوقف عند محطة القرآن الكريم .. فقال العجوز :
ـ حسن نحتاج لآيات الله تخفف عنا .
خشعت نفوسهم بعض الوقت بالآيات البينات فى سورة الزمر حتى : " انك ميت وأنهم ميتون " هتف عبدالستار :
ـ ماشاء الله .. لقد جاء الامر من السماء.
ـ الم أقل لكم بأنه مجنون ..يوم نحس من بدايته.
التفت ذو النظارة السوداء الى زميله مؤنبا :[لم ار عصبية تكسر مفتاح السيارة بداخلها كما رأيت اليوم .
خاطبه عبد الستار بمودة :
ـ لا تغضب يا أخى .. والله أنه ليوم مبارك .. ستعرف ذلك فى الحال .. أتريد أن اسرع بكم .. لا بأس .. توكلنا على الله .
ضغط عبدالستار بقوة ساقه فوق دواس البنزين وراح يميل بعجلة القيادة جهة اليمين وجهة الشمال ..
السيارة تهتز بعنف .. أجسادهم تتصادم .. تتخبط بجسم السيارة الصراخ يتعالى :
ـ قف يا مجنون .. قف سنموت .
يتعجب عبدالستار من أمرهم .. الا يريدون الموت ماذا دهاهم .. أنا لا أميت أحدا رغما عنه .. ما العمل لا يمكننى التوقف الآن .
الصراخ يتمادى ، ويختلط بعبارات الاستغاثة :
ـ ماذا دهاك يا رجل ..
ـ اشك فى هذا الابله طوال الوقت .
ـ انتظر .. انتظر يا رجل .. اقبض على الفرامل يا...
ـ توقف يا مجنون .. توقف .. توقف .
ـ يا .. بوليس .. النجدة .

ـ الحقونا يا ناس
ـ الحقونا ..
هذه آخر عبارة التقطتها اذن عبدالستار.. و.. اطبق الظلام .

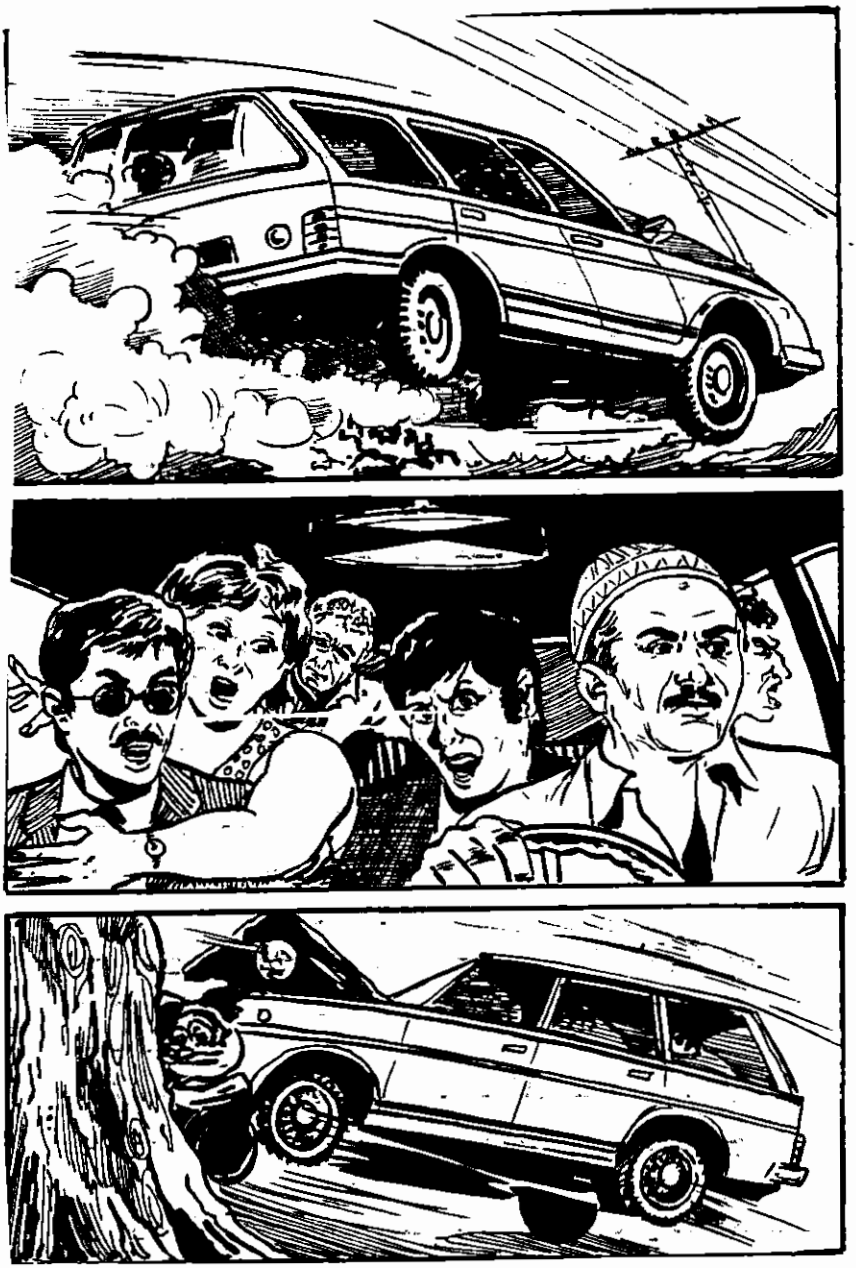

- ٩ -

استيقظ " عبد الستار " ليجد نفسه فى مكان فسيح .. ضبابى تملاه السحب .. رأى نفسه يقف فوق نجيل أخضر .. زاهى الخضرة .. دار حول نفسه سبع دورات بقوة غير مرئية .. مع كل دورة تقترب منه سحابة مكورة يفض تكورها .. تفصح عن واحد من الركاب السبع فى حالة انعدام وزن ، وسرعان ما تثبت اقدامه فوق الارض الهلامية ..

لم يفت طويل وقت حتى وضحت الصورة ، واكتملت امام اعين "عبدالستار" سبعة بالتمام يحملون وجوها يعرفها .. وجوها تعرف عليها قبل ساعة من خلال صندوق الدنيا المثبت امامه فى السيارة عندها فقط عرف أنه وصل الى بغيته وأدرك نجاح خطته ..زها بنفسه واختال امام رفاقه ولسان حاله يقول :

- بماذا تكافئوننى ..

توقع عبدالستار أن يتقدم القوم اليه ممتنين شاكرين صنيعه .. لكنه فوجىء بهم يتقدمون عابسين ناقمين .. مقوسين اذرعهم كى يطبقوا على عنقه ..

انسلخ من بينهم اكثرهم حنقا وشراسة وقد تفجر الشر من خلف نظارته مواجها عبدالستار :

- ليتك تموت مرة اخرى بيدى .

لف الجميع لحظة صمت .. ارهفوا السمع .. صوت فضائى ينادى :

- النزلاء الجدد .. الى الجنة .. الى الجنة يقودهم عبدالستار بن شلبية .

بلغت سعادة الرجل حدا نسى معه ما كاد يفعله به الرجال منذ ثوان .. عباً صدره بالهواء المنعش واشار بيده آمرا الجميع أن يتبعوه ..

فى حركة التفاف سريعة ، وقف القوم فى وجه عبدالستار حائطا

منيعا قاطعين امامه الطريق ..اتحدت اصواتهم فى لحظة واحدة :
ـ اعتراض .
ـ لم الاعتراض .. الا تريدون أن تدخلوا الجنة ؟
ـ ندخل بالتأكيد .. ونرفض دخولك أنت معنا .
عقدت الدهشة لسان الرجل . عادت إلى مخيلته صورتهم البشعة منذ قليل وقد كادوا أن يفتكوا به .

فى الامر ما يريب بلا شك .. فتح عينيه على سعتهما يتفرس فى وجوههم ، هاله انها اكثر قبحا وفظاظة مما كانت عليه فى الدنيا .. وكان يبغى أن يحيلها الى وجوه وديعة خيرة .. رآها وحوشا ضارية تتضور جوعا .. تتحفز للفتك بالفريسة فصرخ فيهم :
ـ ماذا دهاكم يا قوم .. ألا تعرفوننى .. أنا عبدالستار قائد السيارة التى اوصلتكم .. لم تأتوا إلى هنا مصادفة .. كله من تدبيرى .. أولى بكم أن تعترفوا بفضلى ..
لم يتلق الرجل جوابا لتساؤلاته .. شاهد أيديهم تتسابك ووجوهم تتجمد .. وجد نفسه كأسد حبيس والجرذان تقف على ذيولها شماته .. يزأر .. يصول ويجول يبحث عن فرجة يمرق منها .. لا سبيل .. يتنقل بينهم يهز بعنف الواحد بعد الاخر يستوضحه الامر وهو يصرخ .. ويصرخ ..
ـ ما أقسى تنكركم لمن أحسن اليكم .. كنتم فى مصائر شتى تتوحد فى مصير واحد . الجحيم .. غيرت مصيركم .. سقتكم رغما عنكم الى النعيم .. ما بالكم لا تشكرون لى .. لا تحملونى فوق الاعناق .
الوجوه لا تلين .. الأيادى لا تكل من التماسك .. والرجل فى حيرة بالغة :
ـ عجبا .. متى أتحدتم .. كنتم تأكلون بعضكم بعضا .. كنتم

تضيقون ذرعا ببعضكم .. وتتحدون ضد من ؟ ضدى أنا وقد هديتكم الى الخلود .. ماذا تفيدون من إبعادى .. لن تنالوا خيرا زائدا بدونى .. لن ينقص وجودى شيئا من خيركم ... انطقوا .. تكلموا .. بماذا سولت لكم أنفسكم ..

لم يجبه احد ، اطرق قليلا ولما عاد برأسه كانت عيناه مغرورقتين بالدموع :

ـ ياقوم .. لقد شاخ عظمى .. وأميل رغما عنى الى الدعة والهدوء .. جبلت على حب الخير .. لم أبخل عليكم به ، فدعونى أنعم بقربكم واشملونى بعطفكم [لم ير صدى لكلامه .. كأنهم خشب مسنده ..هل اعيته الحيل ..؟ فليذكر كل منهم بما تجرع من كئوس الفشل والتعاسة فى الدنيا .. يحثه ليجتر آلامة ورغبته فى الخلاص منها :

ـ أنت أيها الشيخ .. لماذا تتجهم فى وجهى ؟ أنت الذى تشكو الوحدة بعد رحيل زوجتك .. تحققت امنيتك ولحقت بها وضمنت الجنة...

ـ وأنت ياعجوز .. أى بغية لك فى الدنيا وقد حمل وجهك حفر الدهر وخمشاته .. وجنتى ستعيد ماء الشباب الى وجهك.. ألا يكفى هذا شفاعة..؟[ـ تذكر يابنى أنك فى الدنيا بلا مستقبل .. يهزمك سؤالك اللحوح متى أتزوج ؟ متى أفتح بيتا .. وأسكنك الجنة وزوجتك الحور العين الان ترانى عزولا فتقصينى عنك..؟

ـ فتاتى الصغيرة ... منكوبة الدهر .. حملت ذنوبا بضعف عمرك..وطهرتك الشهادة .. الآن تأنفين مجاورتى ؟

ـ ولا أعجب منك ياسيدتى .. هجرت بيتك وضقتى ذرعا بدنياك ألك ملاذا آخر أفضل من الجنة ؟

ـ وأنتما أيها العدوان الحميمان .. تتشابك أيديكما فى مودة

وكنتما كقط وفأر .. ماذا جنيت لترشقانى بنظرات متوعدة .. من حقى أن أفهم ..
اشتم رائحة الغدر .. عثوتم فى الأرض فسادا وزحفتم بذنوبكم .. الجنة تلفظكم لو أردتم بها عبثا .. لماذا لم تخلعوا أثوابكم الدنياوية وتتخلوا عن طباعكم العدوانية .. لكنها مزروعة فى أعماقكم اشواكا وصبارا مرا لن يبرحها ..
أنفطر قلب الرجل ولا من مجيب .. صمت قليلا يسترد أنفاسه .. انهمرت دموعه انهمارا غزيرا .. والوجوه صلدة قدت من صخر .. دار حول نفسه .. اقترب منهم متوددا .. تسلح بضعفه وقلة حيلته :
- هبوا أننى أخطأت .. ألا يتعطف أحدكم ويدلنى على موطن الخطأ..
لا تزال أصواتهم متحدة .. الكل فى صوت واحد :
- لقد جئت بنا قبل الأوان .
- كيف .. ؟ ومتى يكون الأوان ؟
- لدينا أعمال فى الدنيا لم ننجزها بعد .
- أهى من الخير حتى توصلكم لنتيجة أفضل مما توصلتم اليه ..؟
- نحن نعمل دون النظر الى النتيجة ..
- الى هذا الحد؟ حرت فى أمركم .
لمح عبدالستار جلبة فى الصف .. برق أمل فى مخيلته .. أنطفأ سريعا .. أنقطع الصف والتحم فى لمح البصر بعد أن لفظ ذا النظارة السوداء ..الذى تقدم من عبدالستار .. وتكلم :
- لتعرف كم أنا طيب القلب .. سأتولى تفهيمك بنفسى ما عجزت عن تفهمه طوال عمرك .. حبك للخير من نوع غريب .. نوع غير موجود " حب لم يعرفه البشر" .. يعرفه خيالك المريض فقط . أنت تسببت فى فوزنا بالجنة . لا ننكر هذا .. وقد كانت بعيدة

المنال .. هذا صحيح .. المشكلة "أنك نأيت بنا عما كنا نحلم به بالفعل " . فلكل منا أعماله ومهامه وأمنياته فى الدنيا .. يوم ينجزها يشعر بذاته . وقيمته .

حك الرجل أذنه فبدت أظافره كمخالب نمر .. أرتعد لها عبدالستار وخطا خطوات الى الوراء لم يأبه الرجل بارتعاده ومد يده وحطها على كتفه فطالت رغم إبتعاده وأكمل حديثه :

- حاول أن تفهم ياوجل فلا تضيع وقتى كما اضعت فرصتى فى الدنيا.

- اذا كنت فعلا تعرف قيمة الوقت ، فلماذا تهدره على باب الجنة أنت الأن محل غبطة ممن فى الدنيا مهما علت شئونهم .

هز الرجل رأسه هزة عنيفة كادت أن تطيح بنظارته .. مط شفتيه وبسطهما :

- ومن أبلغ الأحياء الشامتين بى أننى فى الجنة .. من أخبرهم بالنعيم الذى جلبته لى رغم أنفى .. هم الأن يحتفون برحيلى .. يقولون أنه ذنبنا - مات فى حادث ، الله يجحمه .. "يهل ولا يهمل" .. يضرب الواحد منهم كفه بكف الآخر مسرورا وهو يردد: "جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا"

- وما سر سعادتهم المبالغ فيها لغيابك ..؟

- سرها أنى ذكى وداهية ..

قالها الرجل وهو يهز رأسه ويتيه بنفسه .. تهيأ ليقص حكاية ذكائه ودهائه التى وصل فيها الى مقعد " رئيس مجلس الإدارة " قائلا فى إستعلاء :

- لا تظن أننى وصلت اليه بسهولة .. كان الكفاح طويلا ، والتخطيط دقيقا ، والصبر مريرا .. وهل مداهنة الرؤساء بالأمر اليسير .. آه لو تعرف كم تكبدت من عناء حتى سلم لى رئيسى الساذج لحيته .. اليوم الشركة كلها فى يدى .. أحكمها بقبضة

من حديد .
ـ لو دامت لغيرك ما وصلت اليك ..
ـ أطمئن علىّ .. لست لين العريكة كما تظن .. لن أسلم قيادى لأحد فلا يثل بى .
للم عبدالستار أبتسامة باهتة تمزج الدهشة بالخوف.. تجلد وسأله :
ـ مادمت قد وصلت الى نهاية المطاف ، وأسترحت فوق الكرسى الذى يلهثون من أجله .. فلم التمسك بالدنيا .؟
ـ لا يزال الكثير .. إجراء بعض التعديلات فى الشركة .. الصراف القديم لم يستبعد بعد .. مدير المشتريات .. وكيل الشركة .. وكلها إجراءات أمنية لابد منها حتى أطمئن على سلامة مقعدى .. ثم أن رصيدى فى البنك لم يصل بعد الى المليون وأنا أرجو له المزيد .
ـ وما فائدة المليون .. فحسابك بالبنك لن يعفيك من حسابك فى السماء..
أحتد ذو النظارة السوداء وضغط على اسنانه فكان لصريرها صوت مخيف أرتعدت له فرائص عبدالستار فتراجع حتى كاد ينقلب على ظهره .. ثم رفع الرجل صوته وهو يشيح بوجهه :
ـ أنت رجل ثرثار .. بطىء الفهم .. مافائدة أن يأتى الإنسان الى الدنيا ويغادرها قبل أن يحقق فيها مآربه .. لماذا خلق إذن ؟
يخفض من حدة صوته ويسترسل ..
ـ أنت لا تعرف الثمن الذى دفعته فى سبيل هذا الكرسى .. أهملت بيتى .. طلقت الزوجة القانعة التى كانت لا تعرف سوى كلمة كفى .. كفى .. انحنيت أمام الريح .. مجدت السفيه .. رفعت من شأن الوضيع .. أشدت بفطنة الغبى .. قبلت الأيادى .. فعلت الكثير حتى أزيح كل عقبة فى طريقى تحول دون طموحى .. ودون تضخم رصيدى فى البنك .. وها هو ذا آخذ فى

الإرتفاع .. لماذا جئت الآن .. أنت العقبة الكؤود التى لم أخطط لها .. أخذتنى غفلة .. وبدهشك وقوفى فى سبيل دخولك الجنة .. ليتنى أعرف عقابا أشد من هذا أنزله بك .. لن تدخلها معنا .. أغرب عن وجهى .. أغرب ..

أنهى الرجل الغاضب كلامه وعاد الى مكانه بالصف وأنشغل بسد فرجه وثغراته .. أما عبدالستار فقد نسى أنه فى محنة .. محنة قد تبعده عن حلم حياته .. تذكر أنه يجلس فى دار عرض بمفرده ، يشخص الى عرض مسرحى مبتكر يعرض أهتمامات البشر فى الدنيا ولا يرضون بالجنة بديلا لها .. مأخوذ بما يرى .. ومشدوه حتى إسدال الستار ..

يحدث نفسه وقد خطر له خاطر ازعجه .. أنه هالك لا محالة :

(ما العمل .. هل أحاربهم بسلاحهم .. أعمل على إضاعة وقتهم فلا أدعهم ينعمون بالجنة دونى .. ولو أدى ذلك لأن يتقاذفونى كالكرة بين أرجلهم علىّ أن أخطط لمصيرى كما يخططون .. من أين ينهار السد .. ؟ ما هى نقطة ضعفهم ؟)

جال عبدالستار بعينيه فى الصف بحثا عن بغيته :

(هذا هو زميله ذو الشامة المتعضة ..سأجتهد فى تزكية نقمته على زميله).

تقدم نحوه مستعطفا :

ـ أتعشم أن أفهم منك .. أنت رجل طيب .. ومختلف عن زميلك .. رأيتك تخالفه بالفعل وتتأفف من كلامه .. وأن كانت لك أعمال باقية فى الدنيا فلا أظنها إلا أعمال خيرة وفعال نبيلة .. أظنه مشروعا عظيما ذا فائدة كبيرة للبشرية .. أتمنى أن يصدّق حدسى وتقول نعم :

ـ نعم ..

قالها صاحب الشامة وهو يحرر يده من قبضة زميله ويتقدم :

ـ أطمئن .. هو كما تقول .. فأصابعك غير متشابهة ... ليس من أجل رصيدى أو الحصول على منصب .

..على العكس أنا مستعد للتنازل عن السيارة الفارهة فلا يعيرنى بها صديقى هذا "رئيس مجلس الإدارة" الذى أقتطع لى ثمنها من أموال الشركة ومن دم العمال .. بسط كفيه بحركة مسرحية مسترسلا :

ـ لست خجلا من الإعتراف بذنوبى .. وشجاعتى تنبع من ندمى على ما أقترفت يدى .. ورغبتى فى العودة الى العيش الشريف النظيف .. فعما قريب ستلتقط أذنى أحب وأجمل كلمة أشتقت اليها كثيرا .. بابا .. صوب نظرة استنكار الى زميله ، ثم أشار بيديه ليلتفت الجميع وتابع كلامه :

ـ لى قصة عجيبة وشائكة مع هذا الرجل .. فلأتنى زميله القديم يعدنى من أعوانه وخدامه فى صورة وكيل الشركة... وكنت أرانى غانما الى عهد قريب .. الى أن منّ الله على بأعظم ما يمن به على إنسان .. هيأنى للابوة ..

لم ير عبدالستار جسدا ينتفض طربا وهو يذكر الإبوة كما فعل الرجل الذى تابع كلامه :

ـ زوجتى حامل لأول مرة بعد عشر سنوات .. كم هو جميل إحساس الأب...

صرت أعمل حسابا للولد قبل أن أراه .. أرفض أن ينمو جسمه من طعام حرام .. أرفض أن يذل لإنسان مهما كانت منزلته .. أريد رأسه أعلى الرؤوس وكرامته تاجه ودينه فى الحياة .. لذلك .. قررت أن أكون له القدوة الصالحة ..

كان يتكلم شاخصا الى المستقبل ، كأن عينيه تخترقان الحجب... ترى المسطور .. فأراد زميله ان يعكر صفو استرساله بسؤال خبيث :

- وكيف ياعزيزى ستقوم بتربيته وراتبك أضحوكة مبتورة ، ولولاى ماصلح حالك وهندامك .

- سأربيه بفكرى ، وذكائى .. بإعتزازى بنفسى .. سألقنه المثل والقيم .. أدربه على رقة الإحساس ويقظة الضمير حتى يمج المظاهر البراقة والموارد المشبوهة .. هذا الولد امتداد لإسمى .. وحامل لرسمى ، ولسان الدعاء لى بالمغفرة ..

الأمل يتراءى أمام أعين عبدالستار كلما تمادى الرجل فى مقته للشر واتسعت الهوة بينه وبين زميله .. أقترب منه مطمئنا :

- أبنك بالفعل سيحمل رسمك وأسمك حتى بعد رحيلك عنه .. ولست فى حاجة لمن يدعو لك بمغفرة فقد حزت الجنة ونعيمها ..

- ولكنى سأحرم من إحساس الأب .. من رؤية طفلى وهو ينمو رويدا رويدا .. لن يحبو قلبى مع دبيب يديه وقدميه على الأرض .. لن ترجف مهجتى بين ضلوعى مع أولى خطواته وتعثراته .. لن أداعبه طفلا فتشجينى رنين ضحكاته البريئة ونبرة كلماته المغلوطة .

لن أؤدبه صبيا فأشهد دمعته اللؤلؤية تتزلق فوق خده إثر لومى له بلسانى بينما ينفطر قلبى شفقة لحزنه ..

من سيتولى أمر نشأته الآن .. من يشدد من ساعده فى مواجهة صروف الحياة .. أأتركه وحيدا فى ميدان الزمن القاسى وأرفل أنا فى النعيم .. أهذه أبوة .

صمت الرجل برهة شاردا ثم رفع رأسه :

- وشىء آخر يحز فى نفسى .. أننى نويت التوبة .. وبها سأحظى بالجنة .. أما وأنى قد جئت اليها بغير جهد فلم أشعر بلذتها ، لا يحس حلاوة الفوز الا من دفع ثمنا له سهر الليالى وكبح جماح النفس .

لا يزال الأمل يحدوا عبدالستار عن طريق هذا الرجل فاتسعت

بسمته وهو يخاطبه :
ـ والآن ياصديقى وقد " سبق السيف العزل " ولا سبيل الى العودة الى الدنيا وتثبيت اركان التوبة التى انتويتها ومواصلة الكفاح ، وما دمت قد نويت الإصلاح فتكفى النية حتى يغفر الله لك .. وأن كنت مصرا على الفوز بالجنه بعملك فغليك بالإعتراف أمامنا بما ندمت عليه فتكون التوبة النصوح .[هز ذو الشامة رأسه :
ـ الحق معك ياصديقى ففى طيات الاعتراف تكمن عدة مزايا .. فهو يطهرالنفس ..ويريح الضمير .. ويكشف حقائق تصم زميلى العزيز "رئيس مجلس الإدارة" فتوقفه على حقيقة ذكائه الذى يتباهى به ، ويعرف أنه وقع فى مصيدة نصبتها له ..
بلغت سعادة عبدالستار منتهاها بعبارة ياصديقى .. أرهف حسه ليصغى بشغف الى اعترافاته وتعلقت عيناه بشفتيه ..حدج الرجل زميله بعينين يشع منهما بريق الانتصار وألتفت الى القوم ليشهدهم على تفوقه وتكلم :
ـ قصتى ياسادة مثلثة الشكل .. أضلاعها أنا وصديقى هذا وزوجتى الجميلة ..
صحونا فجأة لنجد صديقنا البسيط الفقير صاحب ثروة كبيرة .. بهرت عيون زوجتى دائمة الشكوى من تدنى مستواها عن أترابها .. أما أنا فقد كانت دهشتى أكبر من حسدى له .. فقد كان يقفز من منصب الى منصب وأنا أتعثر فى مكانى ..
خطرت لى فكرة خبيثة،دلتنى عليها نظرات الإعجاب فى عينيه تجاه زوجتى .. فصديقى ياسادة (زير نساء) أتفقت أنا وزوجتى أن نقف على سره ونعرف مصدر ثروته مستغلين نقطة ضعفه .. وسرعان ما أبدت زوجتى أستعدادها .. فهى ليست فاتنة وحسب ، وإنما لماحة أيضا ..

أسرعت الأيام خطاها نحوى .. أبتلع الطعم .. جاءنى يطلب مساعدتى له فى أعماله الكثيرة .. صرت صاحب الحظوة عنده .. قربنى .. دللنى.. أركبنى المرسيدس .. غير أثاث بيتى وهندامى كما قال لكم ..

لا أنكر مدى سعادتى بما اصبت من نعمة فى جواره خاصة والأمر لا يكلفنا سوى سهرة لطيفة أو حفلة فى بيتى وضحكات زوجتى الرنانة ، ونظرات عينيها الساحرة ..

ولم يدر هذا ال(...) بأننى على علم بكل شىء وهو كثور السيرك الذى لا ينطح الا فى الحدود التى رسمها له مدربه ..

ألتفت مواجها زميله وقد أنفرجت أساريرة :

- أرأيت الآن فارق ذكائى من ذكائك .. كنت الأول عليك طوال سنوات الدراسة .. المفضل عليك فى بداية عملنا معا فى شركة واحدة .. وكان حب الرؤساء الى وقت قريب من نصيبى دونك لاخلاصى ونشاطى .. أنقلب كل شىء فى لمح البصر .. أستعنت أنت بأساليبك الوصولية الملتوية التى فاق سحرها الذكاء والنشاط والأخلاص فى العمل ..

أستطالت ساقاك وطوت الدرجات حتى صارت فوق كتفى .. كان من حقى أن أحقد .. أبحث عن وسيلة تبقينى فى المرتبة الأولى .. لا تغضب ياعزيزى فهو مكانى دائما ، و كانت خطتى البارعة التى أطلعتك عليها الآن .

كان الرجل يتكلم أمام الجميع كأنه خطيب أعتلى المنبر وخلب الألباب بالترهيب والترغيب فشخصوا له وهو يسترسل :

- أنت تداهن هذا وتطأطىء الرأس لذلك فيخلعون عليك المنن والعطايا ، وأستولى أنا عليها على الجاهز .. والثمن نظرة من الست ..

ولم يرد لى ربى أن تظل رقبتى تحت حد السكين .. أنتفخ بطن

زوجتي ، فهب ضميرى الراقد .. راق فى عينى التنازل عن كل شىء أملكه أغود فقيرا شريفا .. لكنه يأبى أن يخلى سبيلى .. إنسان الخطيئة لا يهدأ له بال حتى يوصم بها الشرفاء.. ومن يعش فى الظلام يشد اليه جميع الأيدى التى تمتد لانتشاله..

كان ذو النظارة السوداء يستمع الى رواية صديقه وهو يبتسم فى سخرية مكبوتة الى أن فرغ من كلامه فأطلق لها العنان فأنطلقت تدوى وتشق الفضاء وتقلق سكونه .. تمالك الرجل الساخر بعد جهد ، وتحدث بلهجة تجمع بين التهكم والشماتة ..

ـ عددت فضائلى عليك ونسيت أهمها .. ألا تعرف ماهى .. ؟

أجابه فى غير إكتراث :

ـ لا .. من فضلك دلنى عليه .

ـ هذا الولد الذى تنتظره ، والذى قلب موازين عقلك ، وأيقظ فى ضميرك نزعة الشرف .. هو أيضا من هداياى اليك ..

ـ ماذا .. ؟

قالها ذو الشامة فى دهشة كبيرة ، وفغر فاه فى بلاهة ، بينما واصل الآخر كلامه :

ـ هو كما قلت لك .. لقد أختصرت زوجتك عليك الطريق اذ كشفت امامى غطاء نفسك ووقفت على ماتنطوى عليه من طموحات متواضعة ، فأسرعنا معا نحقق لك أمنياتك ، ونحن ممتنان لك إنك أتحت لنا الإختلاء بأنفسنا فى إطمئنان .. اذ كنت على علاقة خميمة بزوجتك الساحرة قبل اكتشافك لنظراتى .. وقد أصبت بفضل خطتك البارعة غرضين طالما اجهدت ذهنى بحثا عن كيفية الوصول اليهما:

كيف اطويك تحت جناحى وافيد من بصمتك الكريمة اسفل كل مسروق ومزور .

وكيف اوطد علاقتى بزوجتك الرائعة .. فما عدت احتاط لنظراتى

وهمساتى .. الحب والعمل فى قبضة واحدة . كم ضحكنا عليك وأنت تفسح لنا المكان وتتجاهلنا . وأيام سفرك الطويل ، وما أكثره .. فهو من منحى اليك .. تأتى زوجتك المصون لتقيم معى اقامة دائمة فى شقتى الخاصة .

تفرس الرجل فى وجه زميله ليرى وقع كلامه ثورة عارمة ، ولكن هاله أنه لا يزال متمتعا بتعبيرات البلاهة فتابع كلامه :

ـ انكتفى بهذا القدر مؤقتا فالايام قادمة ولا عمل لنا فيها سوى الكلام .. ام انك مازلت شغوفا لسماع المزيد ..

زوجتك الحنون رفضت أن تجهض نفسها رغم تأكدها من عدم مقدرتك على الانجاب .. رغبتها فى أن تصبح أما أقوى من انتساب ابنها ... لم تطل حيرتنا .. قررنا الاحتفاظ بطفلنا .. وادخالك السجن ..

أعرفت لماذا احتفظ بك حتى الآن .. أجرك جرا الى الاسكندرية .. أدخرك ليوم كهذا .. عملية الاسكندرية هى الفخ الذى سيطبق على عنقك .. كم تخيلناك وأنت خلف القضبان تهذى .. تدق رأسك فى جداره. الجميع ذاهلون وذو الشامة لا يزال فاغرا فاه .. اغتنم عبدالستار الفرصة واقترب منه يهزه ليفيقه من بلاهته .

ـ والآن يا صديقى ، اما زلت متمسكا بالدنيا بعدما عرفت كم تضمر لك من الشر والفضيحة والسجن ..

أخذت عيناه فى الاتساع مع تطاير الشرر منهما .. صاح :

ـ بلى .. لابد من الانتقام .. اقتلها .. اقتله .. وأعود سريعا .. احتفظ لى بمكانى .

أنهى الرجل كلامه وهرول الى الصف يشد يده الى يد زميله ويحكم السد ..

ضرب عبدالستار كفا بكف .

أعلم مدى حب الناس للدنيا وتمسكهم بها ... وما يثير الدهشة

أن عيونهم عليها وهم على باب الجنة .. وهم على شفا النعيم .. والاغرب منه أنهم يأسفون على أعمال تدخر لهم الجحيم المقيم .. ربما تكون النساء اكثر شفقة .. قلوبهن أكثر رقة .. لا بأس من المحاولة .)

ـ وأنت يا أمرأة .. بحق دموعك الوفيرة وفرة الظلم الجاثم على صدرك .. لا تخفى سعادتك بهذا المصير ..

تقدمت المرأة متنمرة بعد أن أغلقت الفجوة التى تركتها بأن وصلت اليدين عن يمينها وشمالها ببعضهما ..

ـ اى سعادة تتحدث عنها .. فرقت بينى وبين اطفالى وتقول سعادة .. ثلاثة اطفال بؤساء بلا أم ..

ـ لهم الله يا سيدتى .. وأبوهم معهم سوف يرعاهم .. و ..

ـ ويتزوج .

ـ كلها أمور مقدرة .

ـ أنت لا تعرف شيئا عن ذلك الأب ..؟

ـ أعرف أنه أنسان شرس .. يهينك ويضربك .. سكير ومقامر ..

ـ ولا تعرف بمن سيتزوج ..؟

ـ أيا كانت .. اى أمرأة .. مادمت بعيدة عنها فلا شىء يهم.

ـ لا .. إلا هذه ..

ـ أترتبين للدنيا وأنت فى الآخرة ..

ـ وما المانع كم من أب تصرف فى أمواله ، فيعطى هذا ويمنع ذاك بحسب ما يتراءى له .. وأنا أدبر أمر عيال وزوج لا أموال .

هى جارتى .. كانت صديقتى .. أترك عندها أطفالى .. أشكو لها متاعبى وقسوة زوجى .. تبكى من أجلى . تلعن الرجال لخاطرى ..

ورأيتهما .. رأيتهما بعينى هذا الصباح .. دارت بى الغرفة همت علىّ وجهى .. قادتنى قدماى إلى سيارتك لتوصلنى إلى عمى

في الاسكندرية لا الى الجنة .
- الأولى بك أن تغبطى نفسك .. فهو الجزاء الذى أعده الله للصابرين أمثالك ..
- ولكنى أخليت لهما الطريق .. سيتزوجها ولا يلومه أحد اذ كانت ترعى اولاده من قبل .. سيضحكان فوق قبرى . فى حياتى أدعوه كل يوم الى محكمة ولا أدعهما يهنآن ببعضهما .
- أتشعرين بالغيرة .. ؟
- بل أشعر بلهيب جهنم ينهش جسدى ، يسحق عظامى .. ليتنى اطولها الان .. امسك بشعرها .. امسح بها تراب الارض .. فكم تمنيت ان ارى نعشه ولا اتوقع عرسه ..
زفرت المرأة تنهيدة حارة طويلة لفحت وجه عبدالستار فتأكد أن بداخلها جمرات ملتهبة تنهش فى احشائها تذيب قلبها وتخرجه ذرات مع انفاسها ..
- لا سبيل يرجى من ورائك يا سيدتى .. حرارة جوفك تحول بينك وبين نسيم الجنة .
- ولماذا انت دهش .. الا تجزع لفظاعة اللفظ .. أليست الضرة من الضرر .. وهو عدو النساء الأوحد .. لماذا أنكر طبيعة الانثى بداخلى .. لو اعرتك أذنى .. لسمعت همساتهما وضحكاتهما وبكاء عيالى .. لو ترى بعينى لشاهدت عناقهما وجزع الاطفال..
.. كأنك متفق معهما .. لن أسمح لك بمجاورتى فى الجنة .. وجودك سيذكرنى بهزيمتى .. بالاخرى التى تعبث فى بيتى وتتحكم فى ولدى وتعلق صورة عرسها مع زوجى مكان صورتى على الحائط .
قبل أن يهم عبدالستار بالكلام ولته المرأة ظهرها وعادت من فورها متخذة مكانها فى الصف المتبع .. هز عبدالستار رأسه فى يأس والتفت نحو الفتاة يسألها غير مكترث :

ـ وماذا وراءك أنت الاخرى .. ألك طموحات فى عالم البغى .. تكلمى فهو يوم الغرائب.
تقدمت الفتاة منكسة الرأس حزينة :
ـ لم أحترف البغاء مختارة يا عمى .. خلقت للشقاء وليس تغير المصير بيد الانسان .. أنا أبنة امرأة ضعيفة ، ذرفت من الدموع أمامى ما أورث قلبى الحسرة وتفسى الذل .. فكنت لقمة سائغة فى فم امرأة قاسية " زوجة أبى " عذبتنى أمام عينيه وبعد اغلاقهما الى الأبد .. لى أخوان من ضرة أمى .. تفانيت فى خدمتهما أملا فى أن يكونا عونى فى المستقبل احترفت لاجلهما دور الدادة والخادمة كما ينبغى وعرفت كل ما هو مطلوب منى .. نسيا أننى أخت لهما. وتذكرا فقط أننى الخادمة فوجئت بهما يتعاليان على .. يطأننى بالاقدام ضربنى أخى لتباطئى فى احضار كوب الماء الذى طلبه ، سبتنى اختى لاننى لم اهرول عند أول نداتها ..
حز فى نفسى تجاهلهما لى .. أنا التى أعدهما سلاتى وامنى ، وكان احساسا بشعا .. بشاعة الخوف والوحدة واليأس .. أكثر ايلاما من أن تعقد أمهما شعرى فى قبضتها وتدق برأسى الحائط ...فررت مع أول شاب تبسم فى وجهى .. فضلت مستقبلا خافت الضوء آخرج اليه عن مستقبل معتم اعيش فيه ..
وهناك تحت الضوء الخافت زاد قاموسى المأساوى كلمة الضياع .. همت فى الطرقات .. أتى الليل .. أول ليل التصقت بالحائط .. هناك على الافريز الاخر يقف رجال .. مهمتهم العطف على من لا بيت لها .. يصطحبونها .. يأوونها .. ويدفعون لها ..
اقترب عبدالستار من الفتاة يربت على كتفها وقد دمعت عيناه :
ـ كم تعذبت يا ابنتى .. مثلك لا يبكى على الدنيا وقد أمتلأت بالذئاب .. ذئاب تنفر الفريسة وذئاب تأكلها .. ما أظنك الا

شاكرة لى انتشالك من تجارتك البائرة .
- ابتعدت الفتاة عنه فى ذعر :
- لا .. بل امقتك .. أنت الآخر ذئب .. ذئب يضيّع الفرص على الفريسة .
- الفرص .. أى فرص ؟
قالها عبدالستار فى ثورة بالغة وقد اتسعت حدقتاه وهو يهز الفتاة بعنف :
- اما زلت تبحثين عن فرص .. أيغريك الربح الملوث ام استعذبت تعذيب النفس .؟
- بل أحترفت الانتظار .. الانتظار الطويل ليوم بعيد .. اليوم الذى يتخرج فيه .. أخى وأختى .. يشغلان مراكزهما المرموقة التى يحلمان بها ، وتكتز امهما المال لأجله .. اظهر فى حياتهما .. أخبر كل المحيطين بهما أن هناك أختا ثالثة فى مركز مرموق .. أخت أكثر غنى وشهرة .. بائعة هوى .. يوم اتخيله .. أعيشه بتفاصيله .. ثلاثتهم راكعون امامى .. لا ألتفت إليهم .. تتوسل أختى فأهوى بيدى على خدها .. يهدد أخى فأبصق عليه .. تنهار امهما .. ارفسها بقدمى .. أهذا كثير .. أليس من حقى الانتقام .. اطرقت الفتاة قليلا تندب حظها العاثر :
- وا أسفاه .. وحتى هذا الحلم افتقدته
- الا تشقين يا أبنتى فى عقاب الله " يمهل ولا يهمل "
- العين بالعين والجروح قصاص .. وجرحى لا يلتئم الا بالثأر .
- سمعتك تقولين الموت اكثر سترا لمثلى ..
- بعد أن أشفى غليلى .. بعد أن أنسى رجفة البرد فى ليالى الشتاء الطويلة ، ولفحة الشمس فى نهار الصيف المقيت .
- وريح الجنة .. ألم ينسك لفحة الشمس ورجفة البرد ..
- كيف ينسينى ؟ .. لم أشعر بريح جنتك على الاطلاق .. الآن

امتلك جسدا ميتا لا يحس .. الم يتمرغ بين اياد ناعمة وأخرى خشنة وهو متبلد لا يدرك الفرق .. وتشمم روائح عطرة وعفنة ولم تزكمه احداها .. واستمع لعبارات فحش وخسة ولم يخدشه معناها .. صار هيكلا بلا مشاعر .. بلا نبض .. بلا رحمة ولاشفقة على أحد حتى أنت ..

ترك عبدالستار الفتاة تنهمك فى شغل مكانها فى الصف من جديد ، وتحول الى الشاب يتأمله مليا :

(ترى..هل سيكون حظى مع هذا الشاب اسعد من سابقيه ..ربما)

ـ يا بنى .. هذه فتاة تبلد احساسها كما سمعت .. أما أنت فلا تزال تحلم بالمستقبل .. و ..

انقطعت انفاس عبدالستار ، تراجع مسرعا فقد رأى الشاب يقترب منه وهو يصر على أسنانه .. وقد برزت عيناه من محجريهما ..

ـ هل أخذت رأينا فى المصير الذى قررته وحدك وفرضته علينا .. اين الديمقراطية .. أمن الضرورى أن تأتى ومعك عزوة تحيط بك فى الجنة ؟... بالشهوة يدى الى خنقك ..

ـ ماذا أصابك يا فتى .. مالك والدنيا .. وقد كنت فيها ساقط الحظ ضائعا .. كلمات عبدالستار هذه المرة غير عابئة بغضب الشاب أو رضاه ، فمحصلته معروفة .

ـ لى فيها أمال كل شاب تخرج وينتظره مستقبله وطموحه ..

ـ الآن أصبح لك مستقبل .. ؟ وكان ميؤوسا منه ..

ـ وما فائدة العقل اذن .؟

ـ التفكير والعمل ..

ـ ذهابُنا الى الاسكندرية كان بداية العمل .. كنا فى طريقنا الى عمى لأسترداد ميراث أبى .. اما أن يسلمه لى فورا أو اضعه فى السجن .

ـ اذن تنتظرك المشكلات والقضايا .. انه لمستقبل !

لم يلتفت الشاب لتهكم عبدالستار عليه واستمر يتكلم ويلوح بيديه فى الهواء :

ـ قررت أن اقض مضجعه .. أعرفه أن الصغير كبر ويطالب بحقه.

ـ وهل أنت ضامن للنتيجة .. وضامن للعمر .. عليك أن تعيش عمرا آخر حتى تشهد البت فى قضيتك ..أفضل من الحكمة أن تقتنص الفرصة المتاحة .. الجنة ونعيمها ..

ـ انك تطلب المستحيل .. كيف أنعم بالجنة وأترك لعمى وأبنائه ثروتى .. الا يكفى ما أكلوه منها .. حرمونى سنين طوالا .. تضورت جوعا .. أنا وأمى..

وكنت اذا تقابلت مع احدهم اهدده بالقانون وهو يهزأ منى .. الآن بفضل فعلتك البلهاء صرت أكثر سخرية .. ضحكاتهم الآن أكثر دويا .. أكثر اطمئنانا فقد صرتُ طعاما للديدان ..

ـ إهدأ يا بنى ..

قاطعه الشاب :

ـ لن أهدأ .. أنت حجر العثرة الذى سقط فوق رأسى . زل قدماى على حين غفلة .. اضعت على سنين الاعداد للثأر ، سنين العذاب التى ادخرت مرارتها فى فمى حتى لا أنساها ، والتى شحنت فيها نفسى لمواجهة عمى وابنائه .. أنا غير مصدق أن كل هذا ضاع فى لحظة .. لحظة طرأت على رأسك المجنون .. لقد أصبحت غير قادر على الثأر ممن فى الدنيا .. فلأ ثأر منك...

لا يدرى عبدالستار كيف انقذ رقبته من بين اصابع الشاب .. اتجه الى الأم وهو يلملم نفسه لعلها تنصفه .. يكون لديها منطق اكثر ليونة ، خاطبها وقد مزج صوته رنين الرجاء واليأس .

ـ هكذا فعل الشباب يا هانم .. مندفعا لا يحسب عواقب الامور .. العواجيز أمثالنا يتصفون ببعد النظر .. من فضلك دليه على ما فيه خيره .. قولى له لقد عوضك الله بثروة لا تنفد .

خيل لعبدالستار أن المرأة ستنصاع لنصيحته ويكون قد حاز تأييد اثنين دفعة واحدة . المرأة وابنها .. وتبددت خواطره :

ـ وهل عشت ما عشت إلا من أجل هذا اليوم .. احتضنت عذابى الطويل وشقائى المرير فى احشائى لانفثه طفلا . ثبتت المرأة ناظريها فى المدى البعيد .. اللاتهائى تستوحى منه حياتها الاولى ، تتوافر مجسمة بكل عذاباتها .. مراراتها .. تنقلها الى مسامع عبدالستار بعد أن مزجتها بهم نفسها الموتورة ..

ـ أتدرك وقع النعمة المفاجئة على الانسان المحروم .. تصيبه بهلع تطيح بعقله وفطنته .. يتوه الطريق من تحت قدميه .. هذا ما فعلته بنا قد تكون أوليتنا نعمة وفيرة .. ولكن كيف ندرك خيرها .. النفس مليئة بالالم .. الحلق تعترضه غصة لعينة .. تعلقم الفم .. عزت الرؤية .. اطرقت العجوز هنيهة وعادت تغرف من بئر احزانها :

ـ انكفأت طويلا فوق ماكينة التريكو .. انسج همومى رداء .. اثبت خيوطه بدموع عينى واهات صدرى واجمع القرش الى القرش ادفعه غذاء ودروسا خصوصية لوحيدى البائس لينمو قادرا عقلا وجسدا على مواجهة اهله ذوى الحسب .. لمشكلة نشأت من تدنى مستواى الطبقى .. كنت خادمة فى بيتهم .. عشقنى ابن سيدى .. تحدى اسرته وتزوجنى .. طرده والده وعنفه أخوه .. ذقنا الامرين وهو ابن الحياة المترفة ، لم يتحمل عضة الجوع ضعفت مقاومته .. سقط مريضا .. مات بين يدى وأنا لا حول لى ولا قوة ..

تنهدت وقالت :

ـ لا تتهمونني بالانانية .. ذهبت الى والده بدون علمه توسلت إليه أن يرحم ابنه .. يعالجه .. رفض إلا أن يطلقنى .. رجوته أن ينطقها شفقة بشهابه .. يبدو أن العناء وراثة ..

وقفت مكتوفة الأيدى .. انتظر معه مصيره المحتوم .. آخر ما نطق به (لك الله) ..

ـ كفى يا أمى ..

صاح بها الأبن من مكانه .. لم تأبه بها الأم استرسلت :

ـ فكرت أن الحق به لولا جنينا منه يرقد بجوار قلبى .. حدثتنى نفسى :

ـ اظنهم نادمين .. لديهم فرصة للتكفير عن ذنوبهم .. ينقذون حفيدهم من مصير والده .. ولو طلبوا منى التنازل عنه والاختفاء الى الأبد لفعلت .. كان شبح الموت الذى اختطف منى الزوج يهدد ابنى .. سخروا منى .. قالوا :

ـ سيولد ابنك مصابا بفقر دم ولين عظام .. يتغذى الجوع والحرمان . عدت خائبة .. ولكنى احمل فى صدرى هدية من صنع أيديهم .. من قسوة قلوبهم وعناد رءوسهم الحقد واصرارى على الثأر .. لابد اولا من اخذ الحيطة ، وشحذ السلاح .. والصبر الطويل .. عشرون سنة .. وأبنى هو سلاحى .. ارضعته لوعتى .. علمته أن الحياة غالب ومغلوب .. غابة قانونها الثأر .. دوامة تطوى المستضعفين . اليس من حقى أن أنعم بهذا اليوم بلحظة الانتصار

اطرقت العجوز قليلا ثم تكلمت وهى تهز رأسها متعجبة .

ـ كم تحرسهم العناية الالهية .. قيدتك لحمايتهم ..

تودد عبد الستار اليها قائلا :

ـ العناية الإلهية نفسها لم تغض الطرف عنك .. حفظت لهم الدنيا وزخرفها الزائف وأبقت لك الجنة ونعيمها فأيهما ترين أكثر حظا ..

ـ فى كلامك كل الحق .. والجنة لا يكدرها مكدر ولا يشوبها شائبة .. وأنت شائبة الجنة .. الا ترحل عنا .. ؟

ضرب الرجل رأسه بقبضة يده .. عجز عن الاجابة .. ايقن أن الأبواب كلها غلقت فى وجهه .. لم يبق سوى نافذة واحدة ..

الرجل المسن .. الواقف فى نهاية الصف .. شارد اللب مكفهر الوجه طوال الوقت :

(ترى هل يؤيدهم هذا الشيخ .. ملامحه جامدة لا توحى بتحديد اتجاهه .. نافذة غير مأمونة اذن)

تقدم عبدالستار من الشيخ .. بسط له يده مصافحا .. عقد الرجل يديه خلف ظهره ..تقدم فى تؤده نحو عبدالستار الذى خطر له خاطر .. أسرع نحو الفجوة التى غادرها الشيخ .. سبقته سرعة الجماعة ويقظتها .. ابعدوه فى الحال .. استدار يتبع الشيخ .. لا يزال مطرق الرأس .. رفع وجهه ببطء مميت حدق فى وجه عبدالستار طويلا .. حك ذقنه .. وضع يده فوق كتف عبدالستار .. حبس الاخير انفاسه .. علق ناظريه على شفتى الشيخ .. تقاوجت نفسه بين اليأس والرجاء .. أسرعت ضربات قلبه .. تحركت الشفتان ..

ـ أتصدق لو قلت لك بأننى أحوج الجميع الى الحياة .. رسالتى فيها كأب لم تتم بعد ..

ـ كيف ..؟ كبر أولادك .. وماتت زوجتك .... وتمنيت اللحاق بها

ـ تزوجت بعدها .. انجبت طفلين لايزالان بحاجة الى الأب .. احبهما كثيرا .. ليتك امهلتنى حتى كبرا ..

ـ ألم تترك لهما ثروة ..؟

ـ بلى .. ثروة طائلة .

ـ اليست امهما شابة وعفية ؟

ـ اجل .. لكنها لا تعلم شيئا من شئون الحياة .. دللتها فصارت العوبتى الجميلة .. ظننت أن المنية ستمهلنى الى آخر العمر ..

ـ لا تحتج بالاولاد .. قل أنك تحيا المراهقة الثانية .

ـ لقد وضعت يدك على الجرح .. آن الآوان لأقص عليك مبلغ قسوة الحياة على .. فحزنى على زوجتى الاولى ينبع من الشفقة

عليها .. عاشت معى سنوات الحرمان الطويل ، ورحلت قبل أن تجنى ثمار جهدنا معا ..

هز الشيخ رأسه آسفا وواصل كلامه :

- حياة غريبة .. تأخذ قبل أن تعطى ..

رفع الشيخ رأسه .. تكلم هذه المرة باحساس المنتصر ..

- لم أستسلم أنتظارا لما تجود به الايام .. قررت هزيمتها .. أخذ منها رغم أنفها .. لويت عنق الزمن وأعدت الحياة من بدايتها .. تزوجت من جديد .. معى المال ، أشتريت به الشباب والوجه الحسن .. انجبت .. عدت انظر لعيون بريئة من نسلى ..انطلقنا جميعا ننعم بالحياة طولا وعرضا .. كان حلما جميلا صحوت منه بهزة من يديك القاسيتين .

قال جملته الأخيرة بصوت انفجارى .. واصبع اتهام مشرعة أمام عين عبدالستار فارتعدت اهدابه .

تابع الشيخ كلامه :

" مال الكنزى للنزهى " ماذا يكون شعور زوجة صغيرة السن .. ضاحكة السن ازاء ثروة هبطت عليها بلا تعب .. سيدلها المال على طريق الغواية واللهو .. ربما تتزوج بشاب فقير فيستل منها اموالى ..

- أنت الآخر تحجر على زوجتك بعد مماتك تريدها راهبة بالرغم من شبابها ومالها .. تتصور أن فى موتك نهاية العالم .. أليس من الجائز أن ينصلح حال زوجتك واولادك ببعدك عنهم فتثوب الزوجة المدللة .. ويعرف اطفالك النضج المبكر .. لماذا لم تقل بأن الله انقذهم من بين براثنك أنت الشيخ المتصابى ..

* * *

فاض الكيل بعبدالستار فأستدار نحو الجميع يصرخ فيهم ..

ـ أنتم أصل الشر فى الدنيا ، ويعز عليكم التخلى عنه .. الانانية تقود خطاكم وتوجه عقولكم ، هى التى تحرضكم على ابعادى بدلا من أن تشكروا لى .. " اتق شر من أحسنت اليه "
صبرت عليكم فطال لجاجكم وعنادكم ..وتمسكتم بفعال الشر والتخريب والحق معكم .. لو كنتم أناسا نافعين لا نفسكم مفيدين لوطنكم وقومكم لاعتبرتم الجنة جزاء وفاقا ..
ماذا أقول لكم .. يعجز اللسان عن الافصاح بكنون القلب .. أكل هذا القدر من سوء الطوية .. على من أنتم ناقمون .. على أنفسكم .. على فلذة اكبادكم .. تملك منكم الشر فصرتم منه وصار منكم ، طويتموه بداخلكم وطواكم .. ما عدتم تفكرون الا من خلاله ولا تتكلمون الا بلسانه ، فتاه عنكم الصواب .
ظل عبدالستار يهذى ويمسك بتلابيب كل واحد منهم ، يهزه بعنف لعله يفيق من غفوته :
ـ أنت يا من احتميت فى ظلام نظارتك ، لو جعلت همك فى الدنيا تحويل خمسة وعشرين مليون فدانا من الصحراء الى ارض خضراء ، بدلا من أنشغالك بتحويل رصيدك من الصفر الى المليون .. لو فعلت لتاقت نفسك لخضرة الجنة ..
ـ وانت بشامتك الشامخة ، وذكائك فى نصب الفخاخ .. لماذا لم تكرس حياتك لخدمة البشرية ، كأن تقوم باختراع دواء لعلاج أبدانهم وأرواحهم بدلا من أختراع الحيل والخدع ، لو فعلت لكانت الجنة دواءك من كل داء ..
ـ أولى بك يا سيدتى العمل فى مجال الخدمة الاجتماعية .. البحث فى مشكلات الاسرة ، تشرد الابناء عندما تصفق الأم الباب خلفها عن غيرة واهمال .. لو فعلت لاحتوتك الجنة فهى الملاذ الأمين .
ـ " يا عجوز " .. كان عليك دور المناداة بحقوق المرأة .. بتحقيق

العدالة لها فلا يعرف العدل الا من عرف الظلم..ليتك فعلت لأنصفت نفسك اولا..ولبسطت لك الجنة بساطها .

- يا فتى الفتيان .. الاحرى بك أن تكون رسول سلام تصلح بين الاخوان .. تحقن دماءهم بدلا من رغبتك فى اراقة دم عمك وأبنائه .. لو سعيت فى السلام لجذبك السلام الدائم الى الجنة .

- وأنت آه منك أنت .. لو أجهدت نفسك فى البحث عن حلول للمجاعة وقد سحقك الجوع وفتت عظامك .. ورماك فى احضان الرجال الخبثاء .. لو تألمت لآلام المنكوبين لهرولت إلى الجنة تتنشدين الراحة ..

- يا شيخنا الثرى .. ليتك اقمت المدن السكنية تلم فيها شعث اموالك من الملاهى وشعث زيجات تشهد نعشها قبل اتمامها .. لو هداك ضميرك الى هذا لابدلك الله بها قصورا فى الجنة ..

لقد أسأت الاختيار ، انتم لا تستحقون الجنة .. لا يليق بكم هذا المقام الطاهر ولا شم ريحها .. سوف أصلح خطئى .. هيا اخرجوا منها .. ابتعدوا عن هذا المكان .. افسدتم كل شىء علىّ حتى رائحة الجنة التى كانت تهب من وقت لأخر قد تغيرت .. أشعر باختناق .. الآن أشم رائحة ضمائركم ونياتكم .. أشم رائحة !!

صمت فجأة وأخذ يتشمم الهواء من حوله .. انه يتشمم الآن رائحة مألوفة لديه .. صرخ :

- أنها رائحة .. "بنزين"..

شعر بيد تهزه من كتفه ، وأخرى تخبط على صدغه والتقطت اذناه عبارة :

- افق يا رجل .. كدت أن تميتنا .. بماذا أنت تهذى ؟

يفتح عبد الستار عينيه بعد جهد .. رأى شبح الرجل المسن يهزه بينما شفتا عبدالستار لاتزالان ترددان

- هيا ابتعدوا .. اخرجوا منها .. رائحة البنزين تخنقنى .. اغربوا

- ١٠ -

فتح عبدالستار عينيه ليجد نفسه مستندا الى سيارته المائلة على جنبها ، تحتضن اطارها النافر ، تلفت حوله فالتقت عيناه بالوجوه السبع يحيطون به .. أحداهن يدلك له يديه واحداهن تقرب زجاجة عطرها من أنفه والجميع مهمهمين بكلام لا يستبين ..

حدق عبدالستار .. دار بعينيه .. تناهى الى سمعه صوت الرجل المسن :

ـ حمدا لله .. فاق وبدأ يتعرف علينا .

ـ أنه رجل مجنون " سيماهم على وجوههم " لولا أننى اجلس الى جواره والهمنى الله برفع فرامل اليد ، وادير عجلة القيادة لكان مصيرنا حضن هذه الشجرة العملاقة بدلا من الارض الطينية الحنون انهى الرجل الغاضب كلامه وهو يضغط فوق نظارته .. ردت المرأة المسنة ..

ـ ما ذنب الرجل .. قدر ولطف .

تكلم صاحب الشامة :

ـ فعلا صواميل الاطارات كانت متأكلة ، اخلت بتوازن السيارة .

لم يرق هذا الكلام للمرأة الوسط قالت :

ـ كان يجب عليه أن يفحص سيارته قبل أن يقودها ، ويعرض حياة الناس للتهلكة .

أيد الشاب كلام المرأة بهزة من رأسه قبل أن يقول :

ـ على حد قولك يا سيدتى يتهموننا بالتهور وهم أكثر تهورا .. ماذا يشغله فلا يفحص سيارته ويدقق النظر فى كل شىء .. ماذا لو اماتنا ..؟

تنهدت الفتاة وقالت :

- لماذا كل هذا الذعر من الموت .. ليته فعلها وأراحنا من الدنيا..
صرخ عبدالستار فى هستيريا :
- مرة أخرى .. أغربوا عن وجهى .. دعونى وحدى .. مللت صحبتكم .. اذهبوا الى حال سبيلكم ..
رد ذو النظارة :
- ومن سينتظرك .. هل أصابنا الجنون مثلك .. آه لو كان لدى وقت .. أقسم بالله لأدخلتك السجن .
قال الرجل ما قال وسحب زميله من يده وابتعدا يناديان سيارة أخرى .. أما الشاب فالتفت إلى أمه :
- اتنتظرين اصلاح السيارة ام نبحث لنا عن غيرها .؟
- كما يتراءى لك يا بنى .
- هيا بنا.. لا داعى للتأخير ، فلم يحصّل منا أجرة حتى ننتظره.
اقتربت المرأة الوسط من عبدالستار هامسة :
- لا تؤاخذنى يا عمى فيما قلت .. على كل حال سأنتظر حتى تصلح السيارة وأعود الى بيتى .. لن أترك أولادى بعد اليوم .. بعدما رأيت الموت بعينى .
تكلم عبدالستار ولايزال منفعلا :
- لم أطلب من أحد مساعدة .. هيا ابحثوا لكم عن سيارة غيرها.
مال الرجل المسن على أذنه متوددا :
- ماذا أصابك يا شيخ .. كيف نتركك فى هذه الحالة ..؟
هل خلت الدنيا من المروّة .. سأبقى معك حتى أوصلك الى بيتك سالما بأذن الله .
قالت الفتاة :
وأنا ايضا .. معك حتى تسترد انفاسك وسيارتك .
تعاون ثلاثتهم على حمل عبدالستار على الوقوف والسير به قليلا ليسترخى فى مكان أكثر اطمئنانا تحت تلكم الشجرة .. انصاع لهم

عبدالستار مؤنب الضمير .. (هل كانوا سيتعاطفون معى لو علموا الحقيقة .. لو عرفوا أن الاطار لم يتخل عنهم بل الذى تخلى هو أنا .. حمدا لله أن سترنى .. لا أدرى كيف قادنى شعورى باليأس الى استعجال مصيرى وهو ليس بيدى .. وكيف نقمت على الدنيا ولا تزال بخير وفيها هؤلاء الناس الطيبون)

لم يطل الميكانيكى النظر وهو يفحص السيارة حتى هب واقفا صائحا فى دهشة :

بالامر جريمة .. الاطار سليم وكل شىء معافى ، فكت الصواميل بيد آثمة .. يجب تبليغ الشرطة ..

لم يتفوه عبدالستار ، نظر الى من يتكلم بعينين مستسلمتين .. واصل الميكانيكى كلامه مواجها عبدالستار :

ـ ألك أعداء .. اين تبيت سيارتك .. هناك من ينوى قتلك ، البوليس يكشف لك الحقيقة ويحميك من أعدائك .

تحولت عينا عبدالستار الى نبعى دمع دون أن ينبث ببنت شفه .. اما الرجل المسن فربت على كتفه :

ـ هل تعرف الجانى ..؟

هز الرجل رأسه بالأيجاب ..

ـ أتتركه ؟

ـ تكلم :

ـ لكل عالم هفوة .. هذه هفوتى التى سأكفر عنها ما بقى لى من عمر .

ـ نحن لا نفهمك .. كيف تعرف الجانى وتتركه ..؟ تكلم ..

تماسك عبدالستار ومد قامته واقفا :

ـ هل أصلحت السيارة يا أسطى .. ؟

ـ نعم .. ولكن ..

قاطعه :

- أترك الامر لله ، لعله يغفر .. هيا بنا يا جماعة أوصلكم :-
- لا بل نوصلك نحن ..
أمام الانقباض الشديد الذى يعتصر وجهه استقبلته الاسرة بين ذهول ودهشة .. يستفسرون عما أصابه .. لم يجدوا إجابة شافية من الثلاثة الذين اصطحبوه ..
- معجزة ساقها الله لأبيكم ولنا ..
- الميكانيكى يقول أن بالأمر جريمة ..
- والدكم يرفض أبلاغ الشرطة ..

* * *

غاب عبد الستار اسبوعا فى سريره ، لكنه لم يغب عن نفسه وضميره فعاش مع نفسه يستغفر ربه فى أسف وبعض أصابع الندم ..
صباح يوم مشرق أعتدل "الحاج عبدالستار" فوق سريره ونادى أولاده وزوجته ، وكانت عيونهم تقرحت بالبكاء ، واصواتهم بحت بالدعاء ..
ضمهم الى صدره ، وبدا أحسن ما يكون من العافية فقد منّ الله عليه براحة البال وازاح عن صدره الهم والحزن فتدفق ماء الحياة فى جسده ووجهه .
- أنا بخير يا أولاد .. اطمئنوا .. الله لا يضيع عباده المخلصين ولو أخطأوا بحسن نية .
- نحمد الله يا أبى أن عفاك ..
قالها محمد وأحنى رأسه يقبل يد والده فقبل الأب رأسه عاطفا حانيا .. انسابت على خدى هدى أمنيات الشفاء مذابة بدمعتين ساخنتين :
- لقد زارك الطبيب النفسانى ولم يستطع التحدث إليك .. يريد

رؤيتك بعد أن شفاك الله ..
ـ ها أنت ذى قلتها يا هدى .. لقد كنت فى رحلة استشفاء بيد رب العالمين .. اما طرد الاشباح فسوف يتولى بخور الحاجة هذه المهمة ..
تهدج صوت الزوجة :
ـ من عينى يا حاج .. أنت البركة فى هذا البيت ..
أبعد الله عنك المرض والشر ..
ـ أوحشنى كلامك يا ست الكل .. لقد جمعتكم يا أولادى لأطمئن عليكم .. ماذا حدث فى غيابى ؟
ـ نحن بخير يا أبى .. صحتك هى الأهم .
ـ الا تزال منتظرا للتعين يا محمد .. ؟
ـ بلى يا والدى .. حسب أوامرك ..
ـ أخطأت فى حقك يا بنى .. الحق معك ان فكرت فى أحتراف أية مهنة .. من الخير أن تكون عضوا منتجا لا عالة على الدولة.
ـ كلام عظيم يا أبى .. وأية مهنة يقع إختيارك عليها .. نجارا ام سباكا ..
ـ لا هذا ولا ذاك .. وتضيع سنوات عمرك وما تكبدته الدولة حتى تخرجك .. الخدمة فى مجال تخصصك حتى تعم الفائدة ..
ـ عدنا للانتظار الطويل .. وربما توزعنى القوى العاملة الى غير تخصصى ..
ـ ومن قال لك أننا فى انتظار القوى العاملة .. الحل موجود فى سيارتى التى كادت تهلكنى .
ـ لم أفهم يا أبى ..
ـ أبيعها .. فلا تزال بحالة جيدة .. لم يمض عليها سوى سنة واحدة .. نبدأ بثمنها مشروعا مفيدا .. يساهم فيه من يرغب من الناس الطيبين من أهل حارتنا وحينا .. تبدأ شركة صغيرة وتمتد

بعرق وجهد شباب الحى . وتفاؤله بحل مشكلته فى السكن والبطالة .

- كيف تبيع سيارتك .. وتبقى بلا عمل ..

- لن أبقى بلا عمل يا هدى .. سأعمل فى الشركة نفسها .. أنسيت أننى موظف قديم ولدى خبراتى الوظيفية .

.. أأعمل عنك يا محمد ..؟

اكتست نبرة هدى بالمرح وقالت :

- شىء جميل .. قسمت العمل على نفسيكما .. محمد المهندس المسئول .. وبابا الخبير المسئول .. وهدى تجلس فى البيت فى انتظار العريس ..

- احتضنها أبوها قائلا :

- مكان الانتظار فقط هو الذى سيتغير .. تنتظرين العريس فى الشركة لا فى البيت .. ألست خريجة تجارة والشركة لا تستقيم الا بحساباتك الدقيقة ومن غيرك يهمه نجاحها وضبط حساباتها ..

نظر الحاج عبدالستار الى زوجته برفق وقال :

- أما أنت يا حاجة فعليك العبء الاكبر .. دعواتك لنا بالتوفيق.

تمت بحمد الله ..

نادية كيلانى

رقم الايداع : ١٩٨٧/٧٦٠٥